الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام

د. محمد سيد طنطاوى

دار الشروق



الإشاعات الكاذبة
وكيف حاربها الإسلام

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email. dar@shorouk, com.

د. محمد سيد طنطاوى

الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام

دار الشروق


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقـــدمة

بســـم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه.

وبعد: فقد اقتضت سنة الله - تعالى - في خلقه، أن يجعل هذه الحياة الدنيا، نزاعا موصولا بين الخير والشر، وصراعا مستمرا بين الحق والباطل، وخلافًا قلما يهدأ بين الأخيار والأشرار، وبين العقلاء والسفهاء، وبين المصلحين والمفسدين.

وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

أي: ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، ولعمها الخراب؛ لأن أهل الفساد إذا تُركوا من غير أن يُقاوَمُوا، استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد في الأرض.

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار في كل زمان ومكان، أن يقفوا في وجوه الأشرار، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تَحولَ بينهم وبين الفساد والطغيان.

وإن من أقبح القبائح التي سلكها الأشرار لمحاربة الأخيار: قذفُهم لهم بما هم بريئون منه، وإشاعتهم للأكاذيب التي يتنزه عنها هؤلاء الأخيار.

وأنت تقرأ سيرة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فترى أعداءهم قد أشاعوا عنهم الأراجيف الباطلة، والقبائح المنكرة.

فقد وصفوهم بالضلال، وبالكذب، وبالجنون، وبالسفه، وبالتكبر، وبالغرور، وبالإفساد فى الأرض، وبغير ذلك من الأقاويل الباطلة، ومن الشائعات الكاذبة. وما قصد أولئك الأعداء للرسل من وراء ذلك، إلا صرف الناس عن الحق، وحسدهم للرسل الكرام على ما آتاهم الله - تعالى - من فضله.

ولم يكتف أعداء الحق والفضائل بإشاعة السوء حول الرسل الكرام، بل حاربوا - أيضًا - ما جاءوا به من هدايات، ومن أخلاق كريمة، ومن عقائد قويمة، ومن سلوك حميد.

وإذا كان تصديق الإشاعات الكاذبة فى كل زمان ومكان، يؤدى إلى النكبات التى تلحق بالأفراد والجماعات، فإن تصديقها فى زماننا هذا الذى تعددت فيه وسائل الاتصالات، وصار العالم كله، كأنه مدينة واحدة، ما يجرى فيه فى الشرق يعلمه أهل الغرب، وما يجرى فى الغرب يعرفه أهل الشرق فى أوقات سريعة محدودة.

أقول: إذا كان الأمر كذلك فإن تصديقها فى زماننا هذا، يكون أشد شرًا، وأقبح مصيرًا، وأسوأ عاقبةً، ولا سيما فى أيام الحروب والأزمات.

ولقد قص علينا القرآن الكريم من الآثار السيئة التى تترتب على تصديق الإشاعات الكاذبة، ما فيه العبرة لمن يعتبر، وما فيه الذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ويكفى للدلالة على ذلك أن تصديق آدم - عليه السلام - لإبليس عندما حرضه على الأكل من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن الأكل منها، أدى إلى خروج آدم من الجنة.

قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه: ١١٥ - ١٢٢).

ولقد وضحنا فى بحثنا هذا عن الإشاعات الكاذبة، أن من أنجح الوسائل للقضاء عليها : التثبت من صحة ما يُقال وما يُسمع، وردُّ الأمور إلى مصادرها الصحيحة، وسؤالُ أهل العلم عما خفى من أحكام، وكتمانُ هذه الإشاعات وعدم ترددها، وقذفها بالحقائق الثابتة، وبالأدلة القاطعة التى تهدمها وتبطلها وتجعل كل عاقل يسخر من مروجيها، وتغليبُ حسن الظن بين أفراد المجتمع، فإن سوء الظن ـ دون موجب له ـ قبيح بالعقلاء.

وإذا كان أعداء الحق والفضائل فى كل زمان ومكان، قد نشروا الإشاعات الكاذبة حول الأخيار الأطهار بأساليب خبيثة، وبمسالك خسيسة، وبمكر سيئ وبتعمد لإلحاق الأذى والضرر بغيرهم . . فإن العقلاء الشرفاء قد ردوا على هذه الإشاعات بما يبطلها ويزيلها ويمحقها، ولكن بالمنطق الحق، وبالقول الصدق، وبالحجة الساطعة، وصدق الله إذ يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء : ١٨).

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القاهرة ـ صباح الأربعاء
١١ من ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ
١٤ من يونيو سنة ٢٠٠٠م

محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

الإشاعات الكاذبة موجودة منذ فجر التاريخ

-١-

لفظ الإشاعات: جمع إشاعة، وقد جاء في المعجم الوسيط (جـ ١ ص٥٠٣) أن الإشاعة: هي الخبر ينتشر ولا تثبت فيه.

والمقصود بالإشاعات - في الأعم الأغلب: التأثير السلبي في ا لنفوس، والعمل على نشر الاضطراب وعدم الثقة في قلوب الأفراد والجماعات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الوعي في أمة، فتأمل أثر الإشاعات فيها، فإذا رأيتها تُصدِّق كل ما يُقال لها، فاعلم أنها أمة مازالت الغفلة متفشية فيها؛ وذلك لأن أسرع الأمم تصديقًا للإشاعات والأراجيف هي الأمم الساذجة، التي لا قدرة لها على نقد الأخبار، وتمحيص الأنباء.

وقد تحمل الإشاعة كذبها بوضوح، ولكن كثيرا من الناس - لجهلهم أو لسوء نياتهم - لا يفطنون إلى هذا التكذيب، أو يفطنون لهذا التكذيب، ولكنهم يريدون نشرها لحاجة في نفوسهم.

أما إذا رأيت فرداً من الأفراد، أوجماعة من الجماعات، أو أمة من الأمم، تتثبت من الأخبار التي تصل إليها، ولا تُصدق منها إلا ما تتأكد من صحته، فاعلم أنها أمة رشيدة، يكثر فيها العقلاء، ويقل فيها السفهاء . . .

يكثر فيها عدد الذين طهرت نفوسهم، واستقامت أفكارهم، واتسعت عقولهم؛ لأنهم بسبب ما أعطاهم خالقهم - عز وجل - من علم نافع، لا تروج فيهم الإشاعات، وإنما هم يعملون بقول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

ـ٢ـ

والإشاعات الكاذبة موجودة منذ وجود الإنسانية، ينشرها الأعداء ضد من يعادونهم؛ لإضعافهم، أو لإنزال الهزيمة بهم، أو لإزالة نعمة منحها الله ـ تعالى ـ لهم أو لغير ذلك من الأسباب التى يراها كل خصم أنها تساعده على الانتصار على خصمه.

ولعل أول من فعل ذلك هو «إبليس» لإغواء آدم ـ عليه السلام ـ!!

وقصة آدم ـ عليه السلام ـ قد وردت فى القرآن الكريم فى سور متعددة منها: سور: «البقرة» و«الأعراف» و«الحجر» و«الإسراء» و«الكهف» و«طه» . .

وهناك آيات كريمة تحدثت عن كيفية خلق آدم، وأخرى تحدثت عن أمر الملائكة بالسجود له، وثالثة حكت موقف إبليس من هذا الأمر، ورابعة ذكرت استخلاف آدم فى الأرض، وخامسة تحدثت عن إسكانه فى الجنة، وسادسة ذكرت إغواء إبليس له، وسابعة تحدثت عن تحذير بنى آدم من الشيطان.

ـ٣ـ

ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن إغواء إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ عن طريق الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: الآيتان ٣٥، ٣٦).

أى: وبعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ وامتثلوا أمرنا جميعًا ما عدا إبليس، قلنا لآدم على سبيل التشريف والتكريم: يا آدم، اسكن أنت وزوجك حواء الجنة، وقد أبحنا لكما أن تأكلا من ثمارها ومطاعمها أكلاً هنيئًا رغدًا، وفى أى مكان منها، واحذرا أن تأكلا من هذه الشجرة التى حددتها لكما، وأمرتكما بعدم الأكل منها؛ لأنكما لو أكلتما منها كنتما من الظالمين.

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل منها، إذ فى النهى عن الاقتراب من الشىء، نهى عن التلبس به من باب أولى.

وقد تكلم المفسرون عن اسم هذه الشجرة، فقيل: هى التين. وقيل: هى العنب، إلا أن القرآن الكريم لم يذكر نوعها، على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لا فائدة فى ذكره.

وقد أحسن الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ التعبير عن هذا المعنى فقال: «والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالى ـ نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها فأكلا منها. ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله ـ تعالى ـ لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البُرِّ ـ أى: القمح ـ، وقيل كانت شجرة العنب. وذلك عِلم إذا عُلم لم ينفع العالمُ به علمَه، وإن جهله جاهل لم يضرَّه جهلهُ به».

ـ ٤ ـ

ثم بيَّن ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

والفعل «أزل» من الإزلال، بمعنى الإزلاق والتنحية بعيدًا عن الشىء. أى: فأوقعهما الشيطان فى الزلل؛ حيث خدعهما ووسوس لهما أن هذه الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها فيها الخير كله، فأطاعاه؛ فترتب على ذلك أن أخرجهما الله ـ تعالى ـ من الجنة التى كانا يتنعمان بخيراتها وثمارها.. وقال ـ سبحانه ـ للجميع: اهبطوا إلى الأرض متنافرين، متباغضين، يبغى بعضكم على بعض، ولكم فى هذه الأرض المنزل الذى تستقرون فيه إلى أن يُدرككم الموت.

ـ ٥ ـ

وفى سورة «الأعراف» نجد تفصيلاً أكثر، للإشاعات الكاذبة التى أشاعها إبليس لآدم، حول الشجرة التى نهاه الله ـ تعالى ـ عن الأكل منها، حيث قال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : وقال الله ـ تعالى ـ لآدم ـ عليه السلام ـ على سبيل التكريم : يا آدم اسكن أنت وزوجك حواء أفضل المساكن وهى ا لجنة ، وتناولا من ثمارها ما شئتما ، واحذرا أن تقتربا من هذه الشجرة ؛ لأنكما إن اقتربتما منها كنتما من الظالمين لأنفسكما ، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة كما قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أى : فألقى إبليس الوسوسة ، أى : الحديث الخفى الذى يصرف الإنسان من الخير إلى الشر . .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾ أى : فعل هذه الوسوسة ، وحرضهما على الأكل من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها ، لتكون عاقبة ذلك أن يفضحهما ، وأن يُظهر ما استتر من عوراتهما .

ولم يكتف إبليس بهذه الوسوسة السيئة ، بل نشر الإشاعات الكاذبة عن هذه الشجرة فقال ـ كما حكى الله عنه ـ : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ .

أى : قال لهما كذبًا وخداعًا : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة ، إلا كراهية أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين الذين يسكنون فى الجنة ولا يموتون ! !

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة ، أو بالإشاعات الكاذبة ، بل أضاف إلى ذلك القَسَم المؤكد فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أى : وأقسم لهما بالأيمان المغلظة أنه لمن الناصحين لهما ، المخلصين فى الحرص على منفعتهما .

ونجح إبليس فى خداعه لآدم وحواء ، بدليل قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

ولفظ «فـدلاّهمـا»: مأخـوذ من التدلية، وأصله: أن الرجل العطشـان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها، فإذا ما أخرج الدلو، لم يجد به ماء.

والغُرور: إظهار النصح مع إبطان الغش، وأصله: من غررت فلانا إذا خدعته. والمعنى: أن إبليس بسبب ما أشاعه عن الشجرة التى نهى الله آدم وحواء من الأكل منها، من إشاعات كاذبة، استطاع أن يخدعهما، وأن يَنْزل بهما من الطاعة إلى المعصية، ومن الخير إلى الشر؛ لأنهما حين أكلا من الشجرة المحرمة، ظهر لهما ما يجب ستره من جسدهما وهما العورتان، فأخذا يلزقان من ورق شجر الجنة على عوراتهما لسترهما، وناداهما ربهما معاتبًا وموبخًا، قائلاً لهما: ألم أنهكما عن الأكل منها، وأقل لكما إن إبليس شديد العداوة لكما؟!

- ٦ -

وفى سورة «طه» - الآيات من ١١٥ - ١٢٣ -: تصوير بليغ حكيم لما وقع فيه آدم من خطأ بسبب نسيانه لأمر ربه، وبسبب تصديقه للإشاعات الكاذبة التى أشاعها إبليس حول الشجرة التى نهى الله - تعالى - آدم عن الأكل منها. وهذه الآيات هى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١٥) ﴾.

أى: والله لقد عهدنا إلى آدم، وأوصيناه ألا يأكل من شجرة معينة، من قبل أن نخبرك بذلك يا محمد، فنسى آدم العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها، ولم نجد له عزيمة صادقة فى التذكر لما أمرناه به أو نهيناه عنه.

وبعد أن بين - سبحانه - أن الملائكة جميعًا قد أطاعوا خالقهم فى السجود لآدم، ما عدا إبليس وأنه - سبحانه - قد قال لآدم: إن إبليس عدو لك ولزوجك، فاحذرا من وسوسته وكذبه عليكما، لأنكما لو أطعتماه، فسيترتب على ذلك أن تخرجا من الجنة، التى فيها ما تشتهيانه من طعام لذيذ، ومن شراب سائغ، ومن ملبس جميل.

بعد كل ذلك قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ .

أى : أن إبليس قال لآدم على سبيل الإغراء والوسوسة والإشاعات الكاذبة : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التى من أكل منها ، عاش مخلدا لايدركه الموت ، وصار صاحب ملك لا ينتهى ولا يفنى ؟ !

وأطاع آدم إبليس ، وصدق ما أشاعه من إشاعات كاذبة عن الشجرة المحرمة ، ووقع آدم تحت تأثير عدوه إبليس فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة كما قال ـ سبحانه ـ بعد ذلك : ﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴾ .

ـ٧ـ

هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن تصديق الإشاعات الكاذبة ، يؤدى إلى الخسران ، ويفضى إلى الهوان ، وينشر العداوة والبغضاء بين الناس .

كما يرى فيها كيف أن إبليس لم ييأس من إشاعة الأقوال الكاذبة ، بل استمر فى الوسوسة لآدم بأن هذه الشجرة التى نهاه خالقه عن الأكل منها ، إذا أكل منها آدم عاش مخلدا ، وصار صاحب أموال لا نهاية لها ولا فناء ، وأن الله ـ تعالى ـ لم يمنعه من الأكل منها إلا كراهية أن يكون آدم من كبار الملائكة ، أو من الذين لا يدركهم الموت .

وهكذا نرى أن إبليس قد استعمل فى خداعة لآدم ـ عليه السلام ـ سلاح الإشاعات الكاذبة ، الذى يعد من أخطر الأسلحة فى سوء العاقبة لمن يصدق ما يقال له دون تمحيص أو تدبر أو تثبت .

جانب مما أشاعه المكذبون عن نبيهم نوح - عليه السلام -

- ١ -

من وسائل التسلية التى ساقها القرآن الكريم، لتثبيت قلب النبى - صلى الله عليه وسلم -: إخباره بأن ما أشاعه المشركون عنه من إشاعات كاذبة، يشبه ما أشاعه الأقوام السابقون عن أنبيائهم.

ومن الآيات القرآنية التى قررت هذه الحقيقة قوله - تعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (سورة الذاريات: الآيتان ٥٢، ٥٣).

أى: الأمر - أيها الرسول الكريم - كما أخبرناك من أنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا، إلا وقالوا له - كما قال قومك فى شأنك - هو ساحر أو مجنون.

والمقصود بالآية الكريمة: تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركى قريش؛ حيث بين له - سبحانه - أن الرسل السابقين قد كذبتهم أممهم، وأشاعوا حولهم الإشاعات الكاذبة التى لا حقيقة لها.

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: أوَصَّى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول من ربهم، أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟!

وقوله - سبحانه -: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: إضراب عن تواصيهم، إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا، وإنما جمعهم تشابه القلوب، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان.

ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٤، ٥٥).

أى: فلا تلتفت ـ أيها الرسول الكريم ـ إلى إشاعاتهم الكاذبة عنك، وداوم على التذكير لأتباعك، فإن التذكير لهم بما أوحيناه إليك، ينفع المؤمنين الصادقين.

ـ٢ـ

ومن الأنبياء الكرام الذين أشاع عنهم الجاحدون من أقوامهم الإشاعات الكاذبة: سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ.

وقد وردت قصته مع قومه فى سور متعددة منها: سورة الأعراف، ويونس، وهود، والمؤمنون، والشعراء، ونوح.

وتكرر اسمه ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم فى ثلاثة وأربعين موضعا، ومكث يدعو قومه إلى إخلاص العبادة لخالقه، ألف سنة إلا خمسين عاما.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت: ١٤).

ومع هذه المدة الطويلة التى قضاها نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، لم يؤمن بدعوته إلا عدد قليل منهم، بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

والذى يطالع كتاب الله ـ تعالى ـ بتدبر وتأمل ـ يرى أن نوحا ـ عليه السلام ـ قد استعمل أحكم الأساليب وأبلغها فى دعوته لقومه، ويكفيك منها قوله ـ تعالى ـ فى السورة التى سميت باسمه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا

﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

- ٣ -

ومع أن نوحا - عليه السلام - قد خاطب قومه بأسلوب منطقى بليغ يقنع العقول السليمة، ويرضى العواطف النقية من رذائل الغرور والحقد والجحود، إلا أن المترفين من قومه، قد أشاعوا حوله وحول دعوته، أنواعا من الإشاعات الكاذبة، وألوانا من الأراجيف الباطلة، لكى يصرفوا الناس عنه وعن دعوته، ولكى يشككوا العامة فى صدقه.

فتارة يشيعون عنه أنه إنسان تائه عن طريق الحق، بسبب ما أصاب عقله - فى زعمهم - من اضطراب وخلل.

ومن الآيات القرآنية التى حكت هذا المعنى، قوله - تعالى - فى سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

- ٤ -

أى: والله لقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه، لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لخالقهم، فقال لهم بتلطف وأدب: يا أهلى ويا عشيرتى اعبدو الله وحده، فماذا كان ردهم عليه؟

كان ردهم أن وصفوه بالضلال، وأشاعوا فيما بينهم أن نوحا - عليه السلام - قد أصيب بالمرض فى عقله.

ورحم الله الإمام ابن كثير، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: «وهكذا الفجار،

إنهم ـ لانطماس بصائرهم ـ يرون الأبرار في ضلالة ، كما قال ـ تعالى ـ في شأن الكافرين : ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾» .

وقد حكى القرآن الكريم ، أن نوحا ـ عليه السلام ـ قد دفع عن نفسه وعن دعوته هذه التهم الباطلة ، وهذه الإشاعات الكاذبة ، بأن وصف نفسه بأربعة صفات كريمة :

أولها: أنه ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : هو لا يقول لهم ما يقول من عند نفسه ، ولكن الله ـ تعالى ـ هو الذى أمره بذلك .

وثانيها: نراها في قوله : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ أى : أبلغكم ما أوحاه الله إلىَّ دون أن أكتم منه شيئًا .

وثالثها: نراها في قوله : ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أى : وأتحرى في إبلاغكم النصيحة التى فيها صلاحكم وسعادتكم .

ورابعها: نراها في قوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى : وقد أعطانى الله ـ بفضله وإحسانه ـ من العلم النافع ما لم يعطكم ، فأنا أحذركم عن علم ، وأنذركم عن بينة .

ـ ٥ ـ

وتارة نرى قوم نوح ـ عليه السلام ـ يشيعون عنه أنه لو كان نبيا حقا ، لما كان مثلهم في البشرية ؛ لأن النبوة ـ في زعمهم ـ تتنافى مع البشرية . ولا يكتفون بهذه الإشاعات الكاذبة عنه ، بل ينشرون في كل مكان ، أن الذين اتبعوا نوحا ـ عليه السلام ـ هم من سفهاء الناس وليسو من عقلائهم ، ومن فقرائهم وليسو من أغنيائهم .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ في سورة «هود» : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ .

أى: والله لقد أرسلنا رسولنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بإخلاص العبادة لنا، ولكنهم قالوا له على سبيل السخرية، وعلى سبيل إشاعة السوء عنه: ما نراك يا نوح إلا بشرا مثلنا، ولا نرى فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا، فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة لا تكون فى البشر، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون النبى واحدا منهم حتى يفهموا عنه.

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: وما نراك اتبعك إلا الذين هم فقراؤنا، وأقلنا شأنا، وأحقرنا حالا، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك، أو أنهم اتبعوك ظاهرا لا باطنا.

ومقصدهم من كل ما ردوا به على نبيهم نوح - عليه السلام - أن يصدوا الناس عنه، وأن يجعلوهم لا يفكرون فى اتباعه؛ لأنه بشر مثلهم، ولأن أتباعه من الفقراء السفهاء، الذين يغلب عليهم الكذب فى أقوالهم وفى أفعالهم.

-٦-

وفى موطن آخر نرى المترفين الجاحدين من قوم نوح - عليه السلام - لا يكتفون باتهامه بالضلال، وبأنه كاذب فى دعواه النبوة، وبأن أتباعه من السفهاء وليسوا من العقلاء، وأنه هو وأتباعه يغلب عليهم الكذب.

لا يكتفون بتلك الإشاعات الكاذبة عنه وعن الذين آمنوا به، بل أضافوا إلى ذلك أنهم أشاعوا عنه أنه ما يريد بدعوته لهم سوى التباهى والتفاخر وطلب الرئاسة عليهم، وأنه فوق كل ذلك، هو إنسان مصاب بالجنون وبالخبل فى عقله.

ومن الآيات القرآنية التى صرحت بذلك قوله - تعالى - فى سورة «المؤمنون»:
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾.

-٧-

أى: قال نوح - عليه السلام - لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده: أفلا تتقون الله - تعالى - وتخافون عقوبته بسبب عبادتكم لغيره؟!

ولكن الزعماء من قومه، أخذوا فى تحذير العامة من اتباع نوح - عليه السلام - وأخذوا فى إشاعة السوء عنه فقالوا لغيرهم: ما نوح إلا بشر مثلكم، ولكنه اخترع وابتدع هذا الدين الجديد الذى جاءكم به، ليكون له الفضل عليكم، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل رسولا لأرسله من الملائكة، وإن ما جاءنا به، ما سمعنا بمثله فى آبائنا الأولين الذين نسير على نهجهم.

وإن نوحا - عليه السلام - ما هو - فى زعمهم - إلا رجل به حالة من الجنون والخبل، وإن عليهم أن ينتظروا عليه إلى وقت شفائه أو موته، وعندئذ يستريحون منه ومن دعوته التى ما سمعوا بها من آبائهم الأولين!!

-٨-

فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحا - عليه السلام - بأقبح مواجهة، حيث أشاعوا عنه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم، وأنه ليس نبيا؛ لأن الأنبياء عندهم لا يكونون من البشر، وأنه قد خالف ما ألفوه عن آبائهم، ومن خالف ما كان عليه آباؤهم لا يجوز الاستماع إليه، وأنه مصاب بالجنون، وأنه عما قريب سيأخذه الموت.

وهكذا الجهل والغرور والجحود، عندما يستولى على النفوس، يحول فى نظرها الإصلاح إلى إفساد، والإخلاص لله - تعالى - إلى حب للرياسة، والشىء المعقول المقبول، إلى شىء غير معقول وغير مقبول، وكمال العقل ورجحانه إلى جنونه ونقصانه.

والخلاصة أن الطغاة من قوم نوح - عليه السلام - قد أشاعوا عنه أنه فى ضلال مبين، كما أشاعوا عنه أنه من البشر وأن البشرية - فى زعمهم - تتنافى مع النبوة، كما أشاعوا أن أتباعه من السفهاء الفقراء، وأنه هو وهم من الكاذبين، كما أشاعوا عنه

أنه يريد من دعوته التى جاء بها، التفاخر والتعالى عليهم، ثم أشاعوا عنه فى النهاية أنه رجل مجنون.

وإشاعتهم عن نبيهم نوح - عليه السلام - بأنه رجل مجنون، قد تُكَرَّرُ منهم فى آيات أخرى، منها قوله - تعالى - فى سورة «القمر»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾.

ولقد نصر الله - تعالى - نبيه نوحا - عليه السلام - على قومه الذين حاربوه بشتى ألوان الإشاعات الكاذبة، حيث قال - تعالى - فى سورة «الأنبياء»: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

جانب مما أشاعه قوم «هود» عنه

-١-

نريد هنا أن نذكر جانبا من الإشاعات الكاذبة، التي أشاعها قوم هود - عليه السلام - عنه وعن رسالته.

وقد وردت قصته - عليه السلام - مع قومه في سور شتى، تارة على سبيل التفصيل، كما في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف.

وتارة على سبيل الإجمال والإيجاز، كما في سور: فصلت، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر.

وينتهي نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - فهو: هود بن عبد الله بن رباح . . بن عاد . . بن سام بن نوح.

وقومه هم قبيلة عاد، نسبة إلى جدهم عاد، بن عوض، بن إرم، بن سام، بن نوح - عليه السلام -.

وكانت مساكنهم بجنوب الجزيرة العربية، بمنطقة يقال لها الأحقاف، وتسمى الآن بالربع الخالي وكان قوم هود - عليه السلام - يمتازون بالغنى، وبضخامة الأجسام، وبالغرور والتعالي والتباهي بالقوة وشدة البطش.

يدل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٠).

وقوله - سبحانه -: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (سورة الحاقة: ٧).

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥).

لذا نجد الإشاعات الكاذبة التى أشاعوها عن نبيهم هود ـ عليه السلام ـ كانت طافحة بسوء الأدب، وبالإصرار على باطلهم وغرورهم.

ـ٢ـ

ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها زعماء قوم هود ـ عليه السلام ـ عنه، لكى يصرفوا عامة الناس عن دعوته، وعن الاستماع إليه: زعمهم أنه إنسان سفيه، ضعيف العقل، يميل إلى الكذب..

يشير إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الأعراف»: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

أى: وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم فى النسب «هودا» ـ عليه السلام ـ فقال لهم ما قاله كل رسول لقومه: يا قوم أخلصوا عبادتكم لله ـ تعالى ـ واتركوا عبادة الأصنام، فإن عبادتكم لها ستؤدى إلى الهلاك والدمار.

وكأنما عظم على هؤلاء الطغاة الجبارين، أن يستنكر عليهم هود ـ عليه السلام ـ عبادتهم لغير الله ـ تعالى ـ فوصفوه بوصفين قبيحين، أولهما نراه فى قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾.

وأصل السفه: الخفة والاضطراب. يقال: ثوب سفيه، إذا كان باليا رديئا. وشاع السفه فى خفة العقل وفى ضعف الرأى.

أى: قال الزعماء من قوم هود لنبيهم ومرشدهم على سبيل التطاول: إنا لنراك يا هود قد تمكنتْ صفة خفة العقل منك، لأنك تركت ما عليه الآباء، وجئتنا بدين جديد ننكره.

وأما ثانى الوصفين القبيحين فنراه فى قولهم ـ كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَإِنَّا نَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

أي : وإنا لنظنك من الكاذبين فى أقوالك التى تزعم أنك جئت بها من عند الله ـ تعالى .

ومقصدهم من كل ما قالوه هو : إشاعة الإشاعات الكاذبة عنه ـ عليه السلام ـ حتى ينفر منه الناس ! !

ولكن هودًا ـ عليه السلام ـ لم يقف موقفا سلبيا من هذه الإشاعات الكاذبة ، ومن هذه التهم الباطلة ، بل حارب كذبهم بالصدق ، وباطلهم بالحق ، ودافع عن نفسه بأسلوب حكيم فقال لهم : ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف : ٦٧ ، ٦٨) .

ـ ٣ ـ

وفى موطن آخر نرى أن قوم هود ـ عليه السلام ـ لا يكتفون بأن يشيعوا عنه بأنه رجل ضعيف العقل ، يؤثر الكذب على الصدق ، بل يضيفون إلى ذلك أنه لم يأتهم بشيء فيه فائدة ، وأن أصنامهم قد انتقمت منه فجعلته فى حالة هذيان دائم ، وعلى جميع الناس أن يبتعدوا عنه ، وإلا فسيصيب كل من يتبع هودا ـ عليه السلام ـ ما أصابه من أمراض وأسقام .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا جانبا من دعوته ـ عليه السلام ـ قومه ، وجانبا من إشاعاتهم الكاذبة عنه ، فيقول : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة هود : ٥٠ ـ ٥٢) .

فأنت ترى أن هودا ـ عليه السلام ـ قد سلك فى دعوة قومه إلى الحق أحكم السبل .

فقد ذكرهم ـ أولا ـ أن المستحق للعبادة إنما هو الله ـ تعالى ـ وحده، وأنهم إذا لم يطيعوه فى ذلك، كانوا متعمدين للكذب والافتراء.

ثم ذكَّرهم ـ ثانيا ـ بأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته، وإنما يلتمس أجره من الله ـ تعالى ـ وحده.

ثم ذكرهم ـ ثالثا ـ بأن كثرة الاستغفار ومداومة التوبة، تزيدهم غنى على غناهم، وقوة على قوتهم.

ثم ذكرهم ـ رابعا ـ بأن إصرارهم على الكفر والجحود، سيؤدى بهم إلى الخسران والدمار.

ـ ٤ ـ

بهذا الأسلوب البليغ الحكيم خاطب هود ـ عليه السلام ـ زعماء قومه؛ حيث وضح لهم دعوته أكمل توضيح، ورغبهم فى الاستجابة لها، حيث ناداهم بلفظ «يا قوم» ثلاث مرات تودداً إليهم.

ولكن هؤلاء الزعماء من قوم هود ـ عليه السلام ـ ردوا عليه أسوأ رد، فقد أشاعوا عنه أنه إنسان يقول كلاما مرسلا لا دليل عليه، وأن بعض أصنامهم قد انتقمت منه لتطاوله عليها.

وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ (هود: ٥٣ ـ ٥٥).

أى: أنهم أشاعوا عنه فيما بينهم أمرين كفيلين بانصراف الناس عنه وعن دعوته!!

أما الأمر الأول فيتجلى فى قولهم: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ والبينة ما يتبين به الحق من الباطل.

أى: قالوا له على رءوس الأشهاد: يا هود أنت لم نسمع منك كلاما يقنعنا، وإنما سمعنا منك كلاما أشبه ما يكون بالكلام اللغو الذى لا دليل على صحته، ولا فائدة من ورائه، وبناء عليه فما نحن بمستجيبين لك، ولا متبعين لدعوتك، بل نحن متمسكون تمسكا تاما بعبادة آلهتنا.

وأما الأمر الثانى فيتضح من قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾!!

ومعنى «اعتراك»: أصابك ومَسَّك. يقال: عراه الأمر واعتراه، أى: أصابه.

أى: وإن حالتك يا هود التى نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك: إن إساءتك إلى أصنامنا، جعل بعضها ـ لا كلها ـ يتسلط عليك، ويوجه قدرته نحوك، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض.

ولم يقولوا: «اعتراك آلهتنا بسوء» بل قالوا: ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾، تهديداً له، وتخويفًا للناس من الاقتراب منه، وتضخيما لشأن أصنامهم، إذ فى قولهم هذا إشارة إلى أنه لو تصدت له جميع آلهتهم، لدمرته تدميرا.

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود، كلها إشاعات كاذبة، وقد تدرجوا فيها من السيئ إلى الأسوأ، ومن القبيح إلى الأقبح، مما يدل على توغلهم فى الكفر والطغيان، وبلوغهم النهاية فى الفسوق والعصيان.

ولذا، كان رد هود ـ عليه السلام ـ على هؤلاء الطغاة ردا قويا حاسما، يدل على تبرئه التام من شركهم، وعلى تحديه لطغيانهم، حيث قال لهم ـ كما حكى القرآن الكريم عنه ـ: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٤ ـ ٥٦).

ـ ٥ ـ

وفى سورة «الشعراء» نرى «هودا» عليه السلام ـ قد بذل أقصى جهده فى تذكير قومه بنعم الله عليهم، وفى تحذيره إياهم من الإصرار على الجحود والبطر، إلا

أنهم ازدادوا عتوا ونفورا منه، وأوهموا العامة أن كلام هود ـ عليه السلام ـ لا وزن له، وأمروا سفهاءهم أن ينشروا بين الناس أنه لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، وأن الخير فى اتباع ما كان عليه آباؤهم من عبادة للأصنام.

تدبر ـ أيها القارىء الكريم ـ ما قاله «هود» لقومه، وما أشاعوه عنه من أكاذيب، لترى كيف تتحول النفس الإنسانية إلى الدرك الأسفل من الكذب والغرور، عندما يستحوذ عليها الشيطان قال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أى: كذبت قبيلة عاد نبيها هودا ـ عليه السلام ـ وتكذيبها له هو تكذيب لجميع المرسلين ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فأنت ترى أن هودا ـ عليه السلام ـ قد بين لقومه وظيفته، وأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته، ثم أنكر عليهم ما هم فيه من ترف وطغيان فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أى: أتبنون بكل مكان مرتفع من الأرض على سبيل اللهو والعبث والترف، بناء يعتبر آية فى الغرور، وتعملون قصورا ضخمة حتى لكأنكم تريدون من وراء إنشائها الخلود الذى لا موت معه، وإذا أردتم السطو والعدوان على غيركم، أخذتموه بعنف وقسوة، دون أن تعرف الرحمة أو الرأفة إلى قلوبكم سبيلا؟!

وبعد نهيه إياهم عن الرذائل، أمرهم بتقوى الله وبشكره ـ سبحانه ـ على نعمه فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولكن هذه النصائح الحكيمة البليغة التى ساقها هود ـ عليه السلام ـ لقومه، لم تقابل منهم إلا بالعناد والصلف، وبالتمادى فى الإشاعات الكاذبة حول هذا النبى الكريم، فقد قال له كبراؤهم بكل استهتار وسوء أدب: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

أى: قالوا له باستخفاف واستهزاء لكى يصرفوا العامة عنه: يا هود، يستوى عندنا سكوتك وكلامك فأرح نفسك من وعظنا، وما تنهانا عنه هو خُلق آبائنا وأجدادنا، ونحن على آثارهم نسير، واعلم أننا لسنا بمعذبين، لأننا لا نصدقك فيما تقوله من أننا سنبعث بعد موتنا.

وهكذا نجد أن هودا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته لقومه أحكم الأساليب وأبلغها، إلا أن الطغاة من قومه - لكى يصرفوا الناس عنه وعن دعوته - أشاعوا عنه ما أشاعوا من أكاذيب، حيث وصفوه بالسفه، وبالكذب، وبأنه لم يأتهم بما يقنعهم، وبأن بعض أصنامهم قد انتقمت منه، وبأن كلامه كسكوته إذ لا فائدة منهما، وبأنه ما جاءهم بما جاءهم به إلا ليصرفهم عن عبادة أصنامهم التى عبدها آباؤهم وأجدادهم، فماذا كانت نتيجتهم وعاقبتهم؟

كانت - كما قال - سبحانه -: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (سورة هود: ٥٩ - ٦٠).

وهكذا ما يشيعه الفجار عن الأخيار، يؤدى إلى هلاك هؤلاء الفجار هلاكا تقشعر من هوله الأبدان.

نسأل الله - تعالى - لنا جميعا الهداية إلى الصراط المستقيم.

جانب مما أشاعه المكذبون
عن نبيهم «صالح» - عليه السلام -

- ١ -

لم يَسلَم رسول من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من التهم الباطلة، ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها أعداؤه عنه، لأنه أتاهم بما يخالف أهواءهم.

إلا أن كل قوم قد سلكوا فى إشاعاتهم الكاذبة مع نبيهم، ما يرونه يتناسب مع بيئتهم ومع ظروف حياتهم، ومع العادات والتقاليد التى سادت فيهم.

فقوم نوح - عليه السلام - مثلا، نراهم ينشرون فيما بينهم أن نوحا هو بشر مثلهم، وادعى النبوة لأنه يريد أن يتفاخر ويتعالى عليهم، ولو شاء الله أن يرسل نبيا لجعله من الملائكة لا من البشر.

ولذا، قالوا فى إشاعاتهم الكاذبة عنه: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (سورة المؤمنون: ٢٤، ٢٥).

بينما نرى قوم هود - عليه السلام - الذين كانوا ضخام الأجسام، أقوياء الأبدان، أغنياء الأموال، يشيعون حول نبيهم بكثرة أنه من السفهاء الكاذبين، وأنه لم يأتهم بشىء يقنعهم، وأن كلامه وعدم كلامه سواء، وأن بعض أصنامهم كفيل بإهلاكه.

وهكذا نجد أن الطغاة من قوم كل نبى وإن كانوا قد اتفقوا على الإشاعات الكاذبة حول كل نبى من أنبيائهم، إلا أنهم يتفاوتون - ولو قليلا - فى ألفاظ هذه الإشاعات، وفى مدلولاتها وفى أثرها السيئ.

-٢-

ونريد هنا أن نذكر جانبا من الإشاعات الكاذبة التى تفوه بها الكافرون من قوم صالح - عليه السلام - لكى يمنعوا الناس من الاستماع إليه، ومن الإيمان برسالته.

وقد وردت قصته مع قومه فى سور متعددة منها سور: الأعراف، وهود، والحجر، والإسراء، والشعراء، والنمل، وفصلت، والقمر، والحاقة، والشمس، والفجر.

وينتهى نسب صالح إلى نوح - عليه السلام - وكانت رسالة نبى الله صالح إلى قبيلة ثمود، التى كانت مساكنها بين بلاد الحجاز والشام، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح.

وقبيلة ثمود - نسبة إلى جدها - كانت من قبائل العرب، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام - ولذا جاء الحديث عنهم بعد الحديث عن قوم هود، فى كثير من آيات القرآن الكريم، وكانوا كسابقيهم يعبدون الأوثان، فأرسل الله إليهم واحدا منهم هو صالح - عليه السلام - لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لخالقهم - عز وجل - ولكى ينهاهم عن عبادة الأصنام، إلا أن قلة منهم استجابت لدعوة نبيهم، أما الكثرة منهم فقد بقيت على كفرها، حتى أخذتها الرجفة التى دمرت الجاحدين تدميرا.

-٣-

والمتدبر للقرآن الكريم يرى أن الإشاعات الكاذبة، التى أشاعها الطغاة من قوم صالح - عليه السلام - عنه، كانت طافحة بالمكر السيئ، وبالتفكير الخبيث، وبالخداع الأثيم، وبالمؤامرات الدنيئة للقضاء على نبيهم الذى جاء لهدايتهم وسعادتهم.

فهم تارة يشيعون عنه أنه كان قبل أن يدعى النبوة إنسانا عاقلا سويا محل ثقتهم، أما بعد النبوة فقد اختلفت نظرتهم فيه؛ لأنه جاءهم بما يخالف ما ورثوه عن آبائهم،

ومن الواجب على الناس كافة أن يبتعدوا عنه، كما أن من الواجب على من آمن به أن يعود إلى عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤه، وإلا كان - فى زعم هؤلاء الطغاة - خائنا لعهد الآباء والأجداد

ومن الآيات التى أشارت إلى هذا المعنى قوله - تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (سورة هود: ٦١).

أى: وأرسلنا إلى قبيلة ثمود، أخاهم - فى الموطن والنسب - صالحا - عليه السلام - فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبى لقومه: يا قوم اعبدوا الله - تعالى - وحده، فهو - سبحانه - الذى خلق أباكم آدم من هذه الأرض، وأنتم من نسله، وهو الذى مكنكم من تعمير هذه الأرض بشتى أنواع الزروع والثمار، وما دام الأمر كذلك، فاشكروه على نعمه، وتوبوا إليه من ذنوبكم، فإن ربى قريب الرحمة من المحسنين، ومجيب الدعاء للمخلصين!! فماذا كان ردهم عليه؟

كان ردهم فيه ما فيه من المكر والدهاء، فقد قالوا له - كما حكى القرآن عنهم -: ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (هود: ٦٢).

أى: قالوا يا صالح - باسمه هكذا مجردا ولم يقولوا له يا رسولنا أو يا نبينا - قد كنت فينا رجلا فاضلا، نرجوك لمهمات الأمور لعلمك وعقلك وصدقك، قبل أن تدعى النبوة، أما بعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد الذى تنهانا فيه عن عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا، فقد أصبحنا فى شك كبير من سلامة عقلك، ومن صحة قولك. ولا شك فى أن مقصدهم من هذا الكلام، أن يقولوا لعامة الناس، إن صالحا قد تحول من إنسان عاقل إلى إنسان أصيب بالاضطراب فى تفكيره، ومن إنسان صادق إلى إنسان كاذب، فاحذروا من اتباعه أو الاستماع إليه!!

وهكذا يتفنن أهل الباطل فى إلصاق الإشاعات الكاذبة بالأخيار الأطهار!!

- ٤ -

وتارة نجد الجاحدين للحق من قوم صالح - عليه السلام - يلجئون إلى الإشاعات الكاذبة عن نبيهم، عن طريق التشكيك فى رسالته، وتهديد الذين آمنوا به، والاستهزاء بهم، حتى يبتعد عامة الناس عنهم.

تدبر ما قاله نبى الله صالح لقومه، وما قاله المستكبرون من قومه، للمؤمنين بما جاءهم به نبيهم - عليه السلام - قال - تعالى -: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: قد جاءتكم معجزة من ربكم ﴿ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: وجعلها مساكن لكم - ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ أى: فاذكروا نعم الله - ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ٧٣ - ٧٤).

هذا جانب من النصائح الغالية التى وجهها نبى الله صالح لقومه، فبماذا ردوا عليه؟

إنهم فى هذه المرة لم يردوا عليه، ولم يلتفتوا إلى قوله استخفافًا به - عليه السلام - بل وجه الطغاة المستكبرون من قومه حديثهم، إلى الفقراء الذين آمنوا بصالح - عليه السلام - ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (الأعراف: ٧٥).

أى: قال المترفون المتكبرون من قوم صالح - عليه السلام - للمؤمنين المستضعفين الذين اتبعوا هذا النبي الكريم، قالوا لهم: أتعتقدون أن صالحا مرسل من ربه إليكم، لتتركوا عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا وآباؤكم، وتعبدوا الإله الواحد كما يأمرنا هذا النبى؟

وقصد المترفين من هذا السؤال للمؤمنين التهديد والاستهزاء؛ لأنهم يعرفون أن المؤمنين يعتقدون أن صالحا رسول من ربه، ولذا وجدنا المؤمنين الصادقين، لا

يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال، بأن يقولوا لهم ـ مثلا ـ: نعم إنه مرسل من ربه، وإنما ردوا عليهم بقولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل. وهنا أعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناء وصلف وجحود؛ لكى يحذروا غيرهم من اتباع صالح ـ عليه السلام ـ، ولكى يشيعوا عمن آمن به أنهم ليسوا على شىء من العقل، واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ما قاله هؤلاء المستكبرون فيقول: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أى: قال المستكبرون ردا على المؤمنين الفقراء: إنا بما آمنتم به كافرون، وسترون العقاب الذى سينزل بكم منا!!

ـ ٥ ـ

وتارة نجد الجاحدين المغرورين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ يشيعون بين الناس أنهم لو اتبعوا صالحا لكانوا من المجانين الذين لا عقول لهم؛ لأنه من المستحيل ـ فى زعمهم ـ أن يكون النبى من البشر.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى أباطيلهم فيقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (سورة القمر: ٢٣ ـ ٢٥).

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود بالترهيب والتخويف الذى جاءهم به نبيهم، إذا ما استمروا فى كفرهم وغرورهم.

فقالوا على سبيل الغرور والإنكار: كيف نتبع واحدا منا يدعى النبوة مع أنه بشر مثلنا؟ إننا لو اتبعناه لصرنا فى ضلال عظيم، وفى جنون واضح، لأن لفظ «سُعُر» بمعنى الجنون. ومنه قولهم: ناقة مسعورة، إذا كانت لا تستقر على حال، وتضطرب فى سيرها كالمجنونة.

ثم أخذوا فى إشاعة السوء حول دعوة نبيهم صالح، وفى وصفه بالكذب والبطر فقالوا: أأنزل الوحى على هذا الذى يزعم أنه نبى دوننا؟ لا لم ينزل عليه شىء من ذلك، وإنما هو كذاب فى دعواه، وإنسان مغرور متكبر معجب بنفسه!!

وفى سورة «الشعراء» نرى ما يقرب من عشرين آية، تحكى لنا ما قاله صالح - عليه السلام - لقومه من نصائح حكيمة، إلا أن هذه النصائح لم تجد منهم أذنا واعية، بل أشاعوا عنه أنه إنسان غلب عليه السحر والجنون استمع إلى قوله - تعالى -: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. . ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ أى: بمعجزة ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

أى: قال السفهاء من قوم صالح بسوء أدب: يا صالح أنت لست إلا من الذين غلب عليهم السحر، وأثر فى عقولهم، فصاروا يتكلمون بكلام يشبه كلام المجانين، وما أنت - أيضا - إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل، وتشرب الشراب كما نشرب، ومن المستحيل أن من يكون كذلك ينزل عليه الوحى!!

- ٦ -

ومن أقبح الإشاعات الكاذبة الى أشاعها الظالمون الغادرون من قوم صالح - عليه السلام - أنهم أشاعوا بين الناس، أن وجود صالح وأتباعه بينهم، أدى إلى انتشار القحط والأمراض فيهم، وأنه لا مفر من التخلص منهم، حتى يعود إليهم الخير والعافية.

وتدبر ما حكاه القرآن فى ذلك فى سورة «النمل»، قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾.

أى: فإذا هم قد انقسموا إلى قسمين: قسم آمن به وهم الأقلون، وقسم كفر به وهم الأكثرون.

ثم بين - سبحانه - ما وجهه نبيهم إليهم من نصائح حكيمة فقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فماذا كان ردهم؟ ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: قالوا له: أصابنا الشؤم والنحس والفقر بسبب وجودك فينا.

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: قال لهم: شؤمكم وفقركم سببه كفركم بخالقكم وما أصابكم هو امتحان لكم.

ثم بين - سبحانه - أن تسعة من المجرمين من قوم صالح - عليه السلام - أقسموا فيما بينهم أن يقتلوه ليلاً هو وأهل بيته، ثم يزعمون لأقاربه بعد ذلك أنهم لا علم لهم بما حدث لصالح، وأهل بيته، وأنهم صادقون فى كل ما قالوه . . .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة رجال - ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: لنقتلن صالح وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم، ودمرهم تدميرا فقال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وهكذا تكون عاقبة الذين يشيعون الفاحشة فى الذين آمنوا، أما الأخيار الأطهار فهم فى رحمة من الله ورضوان.

جانب مما أشاعه أعداء موسى - عليه السلام - عنه

- ١ -

لعلى لا أكون مبالغا إذا قلت : إنه لا يوجد نبى من أنبياء الله السابقين على خاتمهم سيدنا وشفيعنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أشاع عنه أعداؤه الكثير من الأقوال الباطلة ، كما حدث بالنسبة لسيدنا موسى - عليه السلام .

ومن العجيب أن هذه الإشاعات الكاذبة عن موسى - عليه السلام - لم تكن من فرعون وشيعته فقط ، بل كانت منهم ، وممن أرسل الله موسى لإنقاذهم من القتل والظلم وهم بنو إسرائيل .

- ٢ -

وقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ومع بنى إسرائيل ، تُعَد على رأس القصص ، التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم فى أكثر من عشرين سورة ، تارة بصورة مفصلة ، وتارة بصورة مجملة .

ومن السور القرآنية التى تحدثت عن هذه القصة بصورة مفصلة ، سور : البقرة ، والأعراف ، وطه ، والشعراء ، والقصص .

وموسى - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فهو موسى بن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وكانت ولادته فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - وفى ظروف كان فيها فرعون مصر فى ذلك الزمان ، يقتل الذكور من بنى إسرائيل عند ولادتهم ، ويترك الإناث .

قالوا: لأن الكهنة من قوم فرعون أخبروه، بأنه سيظهر رجل من بنى إسرائيل، يكون هلاكك على يديه، فأمر فرعون بقتل كل مولود ذكر من بنى إسرائيل.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فى آيات متعددة، منها قوله - تعالى -: ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة القصص: ٣، ٤).

ويرجح بعض المؤرخين أن ولادة موسى - عليه السلام - كانت فى عهد «منفتاح ابن رمسيس الثانى» وكلاهما أنزل أشد الضربات ببنى إسرائيل؛ لأنهم كانوا عونا للهكسوس الذين انحدروا إلى مصر من آسيا الصغرى، فحكموها لمدة تصل إلى خمسمائة سنة، حكما ظالما للمصريين، فلما تمكن أحد ملوك مصر من طرد الهكسوس من مصر، بدأ هو ومن جاء بعده من ملوك مصر فى إذلال بنى إسرائيل، الذين كانوا عونا وحليفا للغزاة الغرباء.

ولقد تكرر اسم موسى - عليه السلام - فى القرآن الكريم أكثر من مائة مرة.

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما يشتد عليه الأذى من مشركى قريش يقول: «رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر».

- ٣ -

والذى يتدبر القرآن الكريم يرى بوضوح ألوانا من المحاورات التى دارت بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون، كما يرى بوضوح - أيضا - أن على رأس الإشاعات الكاذبة التى أشاعها فرعون وحاشيته عن موسى - عليه السلام - لكى يبعدوا الناس عنه وعن دعوته، زَعْمُهُم أن موسى - عليه السلام - رجل ساحر كذاب، وأنهم سيجمعون السحرة الذين يفضحون كذبه، ويبطلون دعواه على رءوس الأشياء.

ودعوى فرعون وأعوانه أن موسى - عليه السلام - ليس نبيا، وإنما هو ساحر كذاب، نرى القرآن الكريم قد حكاها عنهم فى مواضع متعددة من آياته وسوره.

ففى سورة «القصص» نقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

والمعنى: ووصل موسى بأمر ربه إلى فرعون وقومه، ليأمرهم بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده، فلما أظهر لهم المعجزات التى تدل على صدقه، بأن ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، ونزع يده من جيبه، فإذا هى بيضاء من غير سوء.

لما فعل موسى ـ عليه السلام ـ ذلك، قال له فرعون وأعوانه على سبيل الجحود والعناد: ما هذا الذى جئت به يا موسى إلا سحر، أتيت به من عند نفسك!!

ثم أكدوا قولهم الباطل هذا، بقول آخر أشد منه بطلانا، فقالوا: وما سمعنا بهذا الذى جئتنا به يا موسى، من الدعوة إلى عبادة الله وحده، ومن إخبارك لنا بأنك نبى مرسل من عند الله، سمعنا بشىء من ذلك كائنا أو واقعا فى عهد آبائنا الأولين، الذين نحن على منهاجهم نسير.

وقد رد موسى عليهم ردا منطقيا مهذبا حكيما، حيث قال لهم: ربى الذى خلقنى وخلقكم، أعلم منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده، وربى ـ أيضا ـ أعلم منى ومنكم، بمن ستكون له العاقبة الحسنة، والنهاية الحميدة.

ولم يصرح موسى ـ عليه السلام ـ بأنه يريد نفسه، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله ـ تعالى ـ ليكفكف من عنادهم ومن غرورهم، وليرخى لهم حبل المناقشة، حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التى أيده الله ـ تعالى ـ بها.

ـ ٤ ـ

وفى سورة «النمل» نجد فرعون وحاشيته يكررون هذه الإشاعة الكاذبة عن موسى ـ عليه السلام ـ بأنه ساحر، مع أنه جاءهم بمعجزات واضحة تشهد بأنه رسول من رب العالمين، وليس ساحرا.

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

أى: وذهب موسى ـ عليه السلام ـ ومعه المعجزات الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه، ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، فلما أطلعهم على هذه المعجزات المضيئة الواضحة الدلالة على صدقه، قالوا له على سبيل الغرور: هذا الذى نراه منك يا موسى، سحر بين وظاهر فى كونه سحرا!!

وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه، مع أن أنفسهم قد تيقنت وعلمت علما لا شك فيه أنها معجزات وليست سحرا، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم، لاستيلاء الظلم والتكبر والعناد على قلوبهم، فانظر ـ أيها العاقل ـ كيف كانت عاقبة المفسدين فى الأرض؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله ـ تعالى ـ جميعا، وفى ذلك عبرة لمن يعتبر.

ـ ٥ ـ

وفى سورة «طه» نجد فرعون وأعوانه للمرة الثالثة، يصرون على أن يشيعوا بين الناس أن موسى ـ عليه السلام ـ ساحر ماهر، وليس نبيا أو رسولا، فعليهم أن يحذروه، وألا يستمعوا إليه.

ونجد أن فرعون يقول ذلك للناس، بعد محاورات طويلة دارت بينه وبين موسى وهارون ـ عليه السلام ـ ومنها ما حكاه سبحانه ـ فى قوله ـ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ .

أى: قال فرعون لموسى وهارون: من ربكما هذا الذى أرسلكما إلىّ وإلى قومى؟ إنى لا أعترف به!!

ورد عليه موسى بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ .

أى: قال موسى فى رده على فرعون: يا فرعون ربنا وربك هو الله الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته الصورة التى تلائمه، والهيئة التى تتحقق معها مصلحته

ومنفعته، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها، وأمده بالوسائل التى تحقق هذه الوظيفة.

وهنا قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ أى: ما أخبار القرون الأولى وما حالها، كقوم نوح وغيره؟ فرد عليه موسى - عليه السلام - بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾.

أى: قال موسى لفرعون: علم حال الأمم السابقة محفوظ عند ربى فى اللوح المحفوظ، وربى - عز وجل - منزه عن الخطأ، ومنزه عن النسيان.

وتنتهى هذه المحاورة الطويلة بأن يقول فرعون لموسى - عليه السلام -: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

أى: قال فرعون لموسى على سبيل التحدى والتهديد والتحذير لقومه: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها، بسبب ما أظهرته أمامنا من سحر، ومن خفة يد؟

لا لن نمكنك من ذلك، بل سنأتى لك بسحرة أمهر منك ليكشفوا كذبك، فاجعل بيننا وبينك موعدا محددا للمبارزة، هذا الموعد لا نحن نخلفه ولا أنت تخلفه، وأن تكون هذه المبارزة والمباراة التى بين السحرة وبينك فى مكان يتوسط المدينة، بحيث يستطيع جميع سكانها أن يحضروا إليه.

وهنا رد موسى - عليه السلام -: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

أى: قال موسى لفرعون: أنا قد قبلت هذا التحدى منك يا فرعون، وموعد مبارزتى لسحرتك سيكون يوم عيدكم وزينتكم، وفى هذا اليوم أطلب منك أن تحضر الناس فى وقت ارتفاع الشمس وسطوعها، لكى يشاهدوا ما يدور بينى وبين سحرتك!!

وجاء يوم المبارزة، وكان أول من شهد لموسى - عليه السلام - أنه نبى وليس ساحرا، هم سحرة فرعون، حيث قالوا عندما رأوا عصا موسى تبتلع حبالهم وعصيهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾.

وفى سورة «الشعراء» أكثر من خمسين آية، تحدثت بصورة مفصلة عن المحاورات والمجادلات، التى دارت بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون، كما بينت أن فرعون وحاشيته قد أصروا - للمرة الرابعة - على أن يشيعوا بين العامة أن موسى - عليه السلام - ساحر، وأنه جاء بهذا السحر ليطردهم من ديارهم، وأن عليهم أن يقاوموه وأن يحاربوه، وألا يستمعوا إليه.

ومن هذه الآيات قول فرعون لموسى - عليه السلام - يا موسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؟

أى: قال فرعون لموسى: ألم يسبق لك أن عشت فى بيتنا وأنت صغير، ولبثت فى منزلنا عددا من السنين؟ وقتلت رجلا من شيعتنا، وأنت الآن من [الجاحدين] لخيرنا ولإحساننا إليك؟

وهنا يرد عليه موسى بقوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

أى: قال موسى فى جوابه على فرعون: يا فرعون، أنا لا أفكر أننى قتلت رجلا من حاشيتك، ولكنى فعلت ذلك وأنا أجهل أن هذه الوكزة التي وكزتها له ستؤدى إلى قتله، فأنا ما قصدت قتله، وإنما قصدت نصرة المظلوم.. وبعد ذلك توقعت منكم الشر، ففررت من وجوهكم حين خشيت منكم الأذى والقتل، فترتب على ذلك أن وهبنى ربى علما نافعا، وجعلنى من أنبيائه ورسله.. وتستمر هذه المحاورات الرائعة الحكيمة بتهديد فرعون لموسى - عليه السلام - بقوله: يا موسى ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

ولكن موسى - عليه السلام - يستخف ويستهزئ بهذا التهديد ويقول لفرعون: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؟

أى: أتجعلنى يا فرعون من المسجونين حتى لو جئتك بمعجزة واضحة تدل على صدقى؟

فيقول فرعون : ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى : فأت يا موسى بهذا الشىء المعجز الذى يدل على صدقك : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

أى : فألقى موسى عصاه أمام فرعون وقومه فإذا هى حية عظيمة ، ونزع يده من جيبه فإذا هى بيضاء بياضًا يخالف لون جسمه ، فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار .

وهنا يتزلزل فرعون فيقول لحاشيته المحيطة به : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

أى : قال لهم : إن موسى ساحر بارع فى فن السحر ، وهو يريد أن يخرجكم من أرضكم بسبب سحره ، فبماذا تشيرون علىّ؟

فأشاروا عليه بأن يجمع كبار السحرة فى مملكته ، لكى يبطلوا سحر موسى ـ عليه السلام ـ ويتغلبوا عليه .

وهكذا أشاع فرعون وقومه بين الناس بعناد وإصرار أن موسى ـ عليه السلام ـ ساحر وليس نبيا .

جانب آخر مما أشاعه أعداء موسى ـ عليه السلام ـ عنه

ـ ١ ـ

الأخيار العقلاء من الناس، تراهم فى حربهم وفى سلمهم، وفى صداقاتهم وفى مخاصماتهم، يلتزمون الحق والعدل والصدق فى أقوالهم وفى سلوكهم، ويتخذون الوسائل الشريفة فى الدفاع عن دينهم وعن حقوقهم وعن كرامتهم.

أما الأشرار الفجار من الناس، فتراهم يستميتون فى اتباع الأقوال الباطلة، والإشاعات الكاذبة، والوسائل الخبيثة، وهم يقاومون الحق الذى يخالف باطلهم، والصدق الذى يهتك كذبهم، ولا يكفون عن تكرار الأراجيف التى لا أساس لها، لا من العقل ولا من النقل وهم يحاربون من جاء إليهم لهدايتهم ولصلاحهم وسعادتهم.

وقد رأينا فيما سبق، أن فرعون وبطانته، قد أصروا على أن يشيعوا بين الناس، أن موسى ـ عليه السلام ـ ليس نبيا من عند الله ـ تعالى ـ وإنما هو ساحر كذاب.

ومع أن موسى ـ عليه السلام ـ قد أبطل هذه الإشاعة الكاذبة، بالمنطق السليم، وبالحجة القاطعة، وبالمعجزات التى أيده بها خالقه ـ عز وجل ـ، إلا أنهم لم يتركوا واقعة من الوقائع، إلا وكرروا فيها أن موسى ـ عليه السلام ـ إنسان يجيد فن السحر، وأنه قد جاءهم بما يخالف ما ألفوه عن آبائهم وأجدادهم.

ـ ٢ ـ

وقد ذكرنا قبل ذلك فى أربعة مواضع من سور: القصص، والنمل، وطه، والشعراء، كيف أن فرعون وأعوانه قد تكاتفوا على أن ينشروا بين العامة

أن موسى ساحر كذاب، فعليهم أن ينفضوا عنه، وأن ينبذوا قوله، وأن يستخفوا به.

وفي موضع خامس من سورة «الأعراف» نرى موسى - عليه السلام - يخاطب فرعون بأرق عبارة، وبأحكم إشارة، فيقول له: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

أي: وقال موسى - عليه السلام - بأدب وشجاعة - لفرعون: يا فرعون إني رسول من الله - تعالى - إلا القول الحق، وقد جئتكم بالمعجزات الواضحة التي تدل على صدقي، وهذه المعجزات ليست من صنعي وإنما هي من عند رب العالمين، وما دام الأمر كذلك، فأطلق بني إسرائيل من أسرك، وأعتقهم من رقك وقهرك.

ولكن فرعون يرد على موسى بصلفه وغروره، واصفا إياه بأنه ساحر ماهر، وأنه ما قال هذا القول إلا طمعا في أن يكون ملكًا بدله، وأنه يعمل على إخراجه من أرضه.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

أي: أن بطانة فرعون أيدت فرعون في أن موسى - عليه السلام - ساحر خبير بفن السحر، وأشارت إليه بأن يؤخر الحكم في شأنه وفي شأن أخيه هارون، وأن يجمع السحرة المهرة من كل مكان لكي يفضحوا ما جاء به موسى من سحر، وأن يبطلوه بسحر مثله أو أشد.

وهكذا البطانة الخبيثة تزين لرئيسها الشر، وتهول له الأمر، وتساعده على اتباع خطوات الشيطان.

- ٣ -

وفى موضع سادس من سورة «يونس» نقرأ آيات منها تحكى لنا أن فرعون وأعوانه، قد استهزءوا بدعوة موسى - عليه السلام - لهم إلى عبادة الله وحده، وأشاعوا بين الناس أن ما جاء به إنما هو من باب السحر الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة أو مراجعة.

استمع إلى قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (يونس: الآيات: ٧٥ - ٧٧).

أى: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام، رسولين كريمين هما موسى وهارون - عليهما السلام - وكانت رسالتهما إلى فرعون وقومه، وأيدنا هذين النبيين الكريمين بآياتنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا، وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات وإرشادات، ولكن فرعون وأعوانه استكبروا عن طاعتهما، واغتروا بأنفسهم، وكانوا قوما دأبهم الإجرام والجحود؛ لأنهم عندما وصل إليهم الحق الذى جاءهم به نبينا موسى - عليه السلام - من عندنا لا من عند غيرنا، قالوا: إن هذا الذى جئت به يا موسى، هو السحر الواضح الذى لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير!! وهنا رد عليهم موسى - عليه السلام - بقوله: أتقولون للحق الذى هو أبعد ما يكون عن السحر حين مشاهدتكم له: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذه الافتراءات، وتلك الإشاعات الكاذبة، والأراجيف السخيفة؟!

- ٤ -

وفى موطن سابع من سورة «الإسراء» نشاهد مشادة عنيفة، ومحاورات تحمل التهديد والوعيد من جانب فرعون لموسى - عليه السلام - ومن جانب موسى لفرعون، كما نرى فيها إصرار فرعون على تأكيد الإشاعات والأراجيف حول موسى - عليه السلام - بأنه قد أصيب بالجنون والاختلاط فى عقله بسبب السحر

الذى مرد عليه. قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾.

والمعنى: ولقد أعطينا رسولنا موسى - عليه السلام - تسع معجزات تدل على صدقه وعلى أنه رسول من عند الله - تعالى -، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل عن ذلك، فستجد منهم الجواب الشافى . . .

فقد امتثل موسى أمرنا وذهب إلى فرعون، وأمره بإخلاص العبادة لخالقه، ولكن فرعون طغى وبغى وقال لقومه: أنا ربكم الأعلى، وقال لموسى: يا موسى أنت رجل مسحور، ومختل العقل، ومضطرب التفكير . . .

وهذا شأن الطغاة فى كل زمان ومكان، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم، يرمون أهله - زورا وبهتانا - بكل نقيصة، ويكثرون من نشر الإشاعات الكاذبة عن الحق وأهله.

ولقد رد موسى - عليه السلام - على فرعون ردا يخرسه، إذ قال له: يا فرعون أنت تعلم علم اليقين أن المعجزات التى أيدنى الله - تعالى - بها ليست سحرا، فقد أعطانى إياها ربى خالق السموات والأرض، بصورة واضحة جلية، حتى لكأنها البصائر فى كشفها للحقائق، وإنى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى الهلاك الذى سيدمرك، ويدمر كل من أطاعك وصدقك.

- ٥ -

وفى موطن ثامن من سورة «غافر» التى قصت علينا فى أكثر من عشرين آية، جانبا من المحاورات التى دارت بين فرعون وحاشيته، فى شأن موسى - عليه السلام -، وبين مؤمن آل فرعون وبين قومه، نرى أن فرعون وهامان وقارون، لم يكتفوا بإشاعة أن موسى - عليه السلام - ساحر، بل أضافوا إلى ذلك أنه كذاب، وقد أصروا على ذلك ليصرفوا الناس عنه، بعد أن رأوا أن بعضهم قد آمن بدعوة موسى

ـ عليه السلام ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ .

أي : والله لقد أرسلنا نبينا موسى ـ عليه السلام ـ وأيدناه بمعجزاتنا العظيمة الدالة على صدقه فيما يبلّغه عن ربه ، أرسلناه إلى فرعون الذى هو ملك مصر ، وإلى هامان وزيره ، وإلى قارون الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، بسبب أمواله الكثيرة .

وخص ـ سبحانه ـ هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة موسى كانت لهم ولغيرهم ؛ لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون المؤامرات ضد موسى ، وينشرون عنه الأراجيف والأباطيل والإشاعات الكاذبة ، حتى ينصرف الناس عنه وعن دعوته .

ولذا نجد أن القرآن الكريم قد صرح بأن هؤلاء الطغاة الثلاثة قد قالوا فى صوت واحد لموسى ـ عليه السلام ـ عندما دعاهم إلى اتباع الحق ، قالوا له : أنت يا موسى ساحر وكذاب .

وهكذا كانت نتيجة لقاء موسى ـ عليه السلام ـ بهؤلاء الطغاة الظالمين ، أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وأمروا أتباعهم أن ينشروا ذلك فى كل زمان ومكان .

ـ ٦ ـ

وفى موضع تاسع من سورة «الزخرف» نرى فرعون وأعوانه لا يكتفون بوصف موسى ـ عليه السلام ـ بأنه ساحر ، بل يسخرون منه حتى وهم فى أشد حالات الكرب والبلاء .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يوضح ذلك بأسلوبه المؤثر الحكيم فيقول : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم

بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى ـ عليه السلام ـ بآياتنا ومعجزاتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، أرسلناه إلى فرعون وقومه ، فوصل إليهم وقال لهم بلسان الناصح المرشد الحكيم : إنى رسول رب الناس جميعا إليكم ، لآمركم بعبادته وحده ، ولأنهاكم عن عبادة غيره .

ولكن فرعون وأعوانه حين قال لهم موسى ذلك ، سارعوا إلى الضحك منه ، وإلى الاستهزاء به ، وإلى التهكم به وبدعوته ، دون تأمل أو تدبر لما قاله لهم ، شأن المغرورين الجهلاء .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما جُبلَ عليه فرعون وحاشيته من قسوة قلوبهم ، ومن عدم تأثرها بالمواعظ والأحداث ، ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ .

أى : وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية والمعجزة أكبر من أختها السابقة عليها ، فى الدلالة على صدق موسى فيما يبلغه عن ربه .

ولكن هؤلاء الطغاة لم يعتبروا ، فكانت النتيجة أن أصبناهم بالجدب وبالفقر وبالمصائب المتنوعة . وهنا قالوا لنبيهم بسوء أدب : يأيها الساحر الماهر ، ادع لنا ربك بحق عهده إليك ، أن يكشف عنا هذا البلاء ، فإنه إذا كشفه عنا آمنا بك وصدقناك . .

فدعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه أن يكشف عنهم هذا البلاء ، وأن يرفع عنهم المصائب ، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ أى : فلما رفعنا عنهم العذاب الدنيوى المتمثل فى الطوفان وفى الجراد الذى أهلك زرعهم . . إذا هم يُنقضون عهودهم ، ويُصرون على كفرهم وفجورهم .

وأنت ترى فى هذه الآيات أن فرعون وأعوانه لسوء أدبهم ، ينادون هذا النبى

الكريم بقولهم : ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ ويقولون له : ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فكان الله - تعالى - هو رب موسى - عليه السلام - وحده ، وليس ربا لهم .

وهكذا الأشرار في كل زمان ومكان يحملهم غرورهم وعنادهم وإيثارهم لشهواتهم ، على محاربة الحق والفضائل ، ويحرصون كل الحرص على الإشاعات الكاذبة ينشرونها بنشاط ومكر ودهاء ، ضد الأخيار الشرفاء . .

ولكن سنة الله - تعالى - اقتضت أن يجعل النصر في النهاية لعباده المخلصين الصادقين .

جانب ثالث مما أشاعه أعداء موسى
ـ عليه السلام ـ عنه

ـ ١ ـ

من فضل الله ـ تعالى ـ على أنبيائه ورسله، أنه أيدهم بالمعجزات التى تدل دلالة قاطعة على صدقهم فيما يبلغونه عن خالقهم ـ عز وجل ـ وأنه ـ سبحانه ـ أعطى كل نبى من المعجزات ما يجعله يتغلب على ما نبغ فيه قومه، وما يجعلهم يقفون أمام تحديه لهم مبهورين، وعاجزين عن الإتيان بمثل ما جاء به . .

ففى عهد موسى ـ عليه السلام ـ كان السحر قد وصل إلى درجة كبيرة من التخييل والتمويه وصرف الناس عن الحق إلى غيره، فجاءت معجزة موسى ـ عليه السلام ـ المتمثلة فى العصا التى ألقاها، فإذا هى تبتلع حبال السحرة وعصيهم، فما كان منهم إلا أن هتفوا جميعا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (الشعراء: ٤٧، ٤٨).

وفى عهد عيسى ـ عليه السلام ـ كان الطب قد وصل فى قومه إلى أعلى وأرقى درجاته وألوانه، فكان من معجزاته ـ عليه السلام ـ: «إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله».

وفى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت فنون البلاغة فى القول، قد وصلت إلى ذروتها فى الفصاحة وحسن البيان، فكانت معجزته الكبرى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هى القرآن الكريم، الذى تحدى الله ـ تعالى ـ به الناس أن يأتوا بسورة من مثله؛ فعجزوا . . .

قال ـ تعالى ـ فى سورة «البقرة»: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

وهكذا أيد الله ـ تعالى ـ رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالمعجزات التى تحدى بها الرسل أقوامهم أن يأتوا بمثلها ؛ فعجز هؤلاء الأقوام عن ذلك، وثبت أن هؤلاء الرسل الكرام، صادقون فى كل ما بلّغوه عن خالقهم ـ عز وجل . .

ـ ٢ ـ

ولقد رأينا فيما سبق، أن فرعون وجنوده، قد أشاعوا عن موسى ـ عليه السلام ـ أنه ساحر، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى أكثر من عشرة مواضع من آياته وسوره، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الشعراء : الآية ٣٤) .

أى : قال فرعون لحاشيته بعد أن شاهد معجزات موسى : إن موسى هذا لساحر عليم بفنون السحر، خبير بأصوله وفروعه .

وأحيانا يضيفون إلى كونه ساحرا، أنه كذاب فيما يدعيه من كونه رسولا من عند الله ـ تعالى ـ كما نشاهد فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (غافر : ٢٣ ـ ٢٤) .

أى : والله لقد أرسلنا نبينا موسى ـ عليه السلام ـ ومعه المعجزات الباهرات الدالة على صدقه، إلى فرعون وإلى وزيره هامان، وإلى قارون صاحب الأموال الكثيرة، فلما وصل إليهم ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده، ما كان من هؤلاء الطغاة إلا أن قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ بلسان واحد : يا موسى، أنت ساحر ماهر، وأنت كذاب فى كل ما تدعيه .

وتارة يضيفون إلى كونه ساحرا وإلى كونه كاذبا، أنه مجنون، واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك عنهم فيقول : ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (الذاريات: ٣٨ـ ٤٠).

أي: وفى قصة موسى ـ عليه السلام ـ عبر وعظات، فقد أرسلناه ومعه ما يشهد بصدقه، إلى فرعون وقومه، لكى يأمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده، فما كان من فرعون إلا أن أعرض عن دعوة الحق، وتكبر على موسى بسبب ملكه وجنوده وقوته، وقال فى شأن موسى ـ عليه السلام ـ: هو ساحر أو مجنون.

والمقصود بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾: ما كان عليه فرعون من غرور وتكبر بسبب ما كان يشعر به من مُلك واسع، ومن قوة متعددة الجوانب، فكانت نتيجة هذا الغرور والتكبر والتكذيب.. أن أغرق الله ـ تعالى ـ فرعون وجنوده فى البحر دونَ اعتداد بهم.

ـ٢ـ

ولكن هل اكتفى فرعون وأعوانه، بما أشاعوه حول موسى ـ عليه السلام ـ من إشاعات كاذبة، من أقبحها وصفه بأنه ساحر، وبأنه كذاب، وبأنه مجنون؟

كلا، إنهم لم يكتفوا بذلك، بل أضافوا إلى هذه الإشاعات الكاذبة، وإلى تلك الأراجيف الباطلة، أضافوا إلى كل ذلك إشاعات وأراجيف أخرى، لكى يصرفوا الناس عن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وعن الاقتراب منه، حتى يبقى لهم ملكهم وسلطانهم وفجورهم..

لقد أشاعوا عنه ـ أيضا ـ أنه قد جاءهم بما جاءهم به، للإفساد فى الأرض، وليس لإصلاحها، وهذه الإشاعة الكاذبة عن موسى ـ عليه السلام ـ لم تكن من فرعون وحده، وإنما كانت من أعوانه الذين ربطوا مصيرهم بمصيره، وجاههم بجاهه..

واستمع إلى القرآن الكريم، وهو يحكى هذه الإشاعة الكاذبة على لسان أعوان فرعون فيقول: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ

وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٧، ١٢٨).

أى: وقال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له، على سبيل التهييج والإثارة وإشاعة السوء عن موسى وأتباعه - قالوا لملكهم فرعون: أتترك موسى وأتباعه أحرارا آمنين فى أرضك، ليفسدوا فيها، عن طريق دخول الناس فى دينهم، وانخراطهم فى عقيدتهم، والتفافهم حول موسى - عليه السلام - ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك؛ فيظهر للناس عجزك وعجزها، فتكون الطامة الكبرى التى بها يزول ملكك وسلطانك؟

هكذا زين أعوان فرعون له الانتقام من موسى وأتباعه، بأن أشاعوا عنهم بأنهم مفسدون فى الأرض، فماذا كان رده عليهم؟ كان رده عليهم أن قال لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا - أيها الأعوان - فإن موسى وقومه أهون من ذلك، فإنى سآمر بقتل الذكور منهم، وبترك الإناث أحياء، وإنا فوقهم غالبون، فنحن الأقوياء وهم الضعفاء، ونحن الأعزاء وهم الأذلاء.

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وأعوانه، فيقول موسى - عليه السلام - لأتباعه على سبيل التشجيع والتثبيت: يا قوم، استعينوا بالله فى كل أموركم، واصبروا على المصائب والآلام، فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه، وإنما هى ملك لله رب العالمين، وهو - سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده، وقد جعل العاقبة الطيبة لمن يخلص العبادة له - عز وجل.

ومن الدروس والعظات النافعة التى نأخذها من هاتين الآيتين الكريمتين، أن الطغاة يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - إفساد فى الأرض، وأنهم يجب أن يحاربوا هذه الدعوة بالإشاعات الكاذبة، وبالقتل لمن يتبع هذه الدعوة، وأن الأخيار الأطهار يقابلون كل ذلك بدعوة غيرهم إلى الصبر وإلى الثبات وإلى الاعتماد على الله - تعالى - وحده، وإلى محاربة الكذب بالصدق، والباطل بالحق..

- ٤ -

وفى موطن آخر نرى فرعون لا يكتفى بما أشاعه أعوانه حول موسى - عليه السلام - من أنه جاء ليفسد فى الأرض، وإنما هو يضيف إلى إشاعاتهم الكاذبة إشاعة أخرى، فيقول لهم: إن موسى جاء ليبدل دينكم الذى ألفتموه عن آبائكم وعن أجدادكم، وليأتى بدلا منه بدين آخر لا عهد لكم به، ولا يصح لكم أن تقبلوه، بل عليكم أن تجتهدوا فى نهى الناس عن قبوله . .

ويحكى القرآن ذلك فى قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ٢٦ ، ٢٧).

أى: وقال فرعون لأعوانه الذين يبدو أنهم قد أشاروا عليه بأن قتل موسى - عليه السلام - لا ينهى المتاعب، قال لهم: اتركونى أقتل موسى وأتخلص من أقواله التى فيها ما فيها من الإساءة إلىّ وإليكم، ومن الضرر بى وبكم، وإنى بقتله لا أبالى به ولا بربه، فأنا غير مكترث لا بموسى ولا بربه، واعلموا أنى ما شجعنى على قتله إلا خوفى إذا لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر، أو بأن يُظهر فى الأرض التى تعيشون عليها الفساد، عن طريق بث الفتن بينكم، وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم، والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم.

وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان: يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة، ويشيعون حول الأخيار الأطهار، وحول المصلحين الأبرار، الإشاعات الكاذبة، ثم يزعمون أمام العامة والبسطاء والخاصة والمغلوبين على أمرهم، أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية!!

قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية: «والمقصود من هذا الكلام الذى قاله فرعون: بيان السبب لقتل موسى، وهو أن وجوده، يؤدى إلى فساد الدين أو فساد الدنيا.

أما فساد الدين، فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح، هو الذى كانوا عليه،

ولما كان موسى - عليه السلام - فى زعمهم ساعيا فى إفساده، كان فى اعتقادهم الباطل أنه ساعٍ فى إفساد الدين الحق.

وأما فساد الدنيا، فهو أنه لابد أن يجتمع حول موسى - عليه السلام - قوم يأخذون بأقواله، ويؤمنون بدعوته، فيترتب على ذلك أن تقع الخصومات والفتن بين الناس.

ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم، لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى - عليه السلام - بعد أن سمع من فرعون تهديداته له، وتطاوله عليه، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

أى: وقال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق: يا قوم، إنى استجرت وتحصنت بربى وبربكم من شر كل متكبر مغرور لا يؤمن بالحق الذى جئت به، ولا بيوم الحساب وما فيه من ثواب أو عقاب.

وفى هذا القول الذى قاله موسى - عليه السلام - لقومه: يتجلى إيمانه الراسخ، وصدق إخلاصه، وسمو شجاعته، وثقته برعاية خالقه - عز وجل - له، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق؛ لأن الله - تعالى - الذى هو ربه وربهم، كفيل برعايته ورعايتهم، وبإنجائه وإنجائهم من ظلم الظالمين، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق، وأن التكذيب بالبعث، على رأس الأسباب التى تؤدى إلى الخسران والفشل.

ومن كل ما تقدم نرى أن فرعون وشيعته، قد أشاعوا حول موسى - عليه السلام - ألوانا من الإشاعات الكاذبة التى منها وصفه بأنه ساحر، وبأنه كاذب، وبأنه مجنون، وبأنه يريد أن يظهر فى أرضهم الفساد، وبأنه يريد أن يبدل دينهم . . فهل اكتفوا بذلك؟

هذا ما نراه فيما يأتى بإذن الله.

جانب رابع مما أشاعه أعداء موسى ـ عليه السلام ـ عنه

ـ ١ ـ

إذا كانت الفضائل تتشابه فى صفاتها ونقائها وفى آثارها الطيبة، فإن الرذائل ـ أيضا ـ تتشابه فى ظلامها وفى خبثها وفى آثارها القبيحة التى تتولد عنها الفتن والأحقاد والمفاسد.

والإشاعات الكاذبة تتلاقى وتتشابه فى قبحها مع النفاق، الذى وصف الله ـ تعالى ـ أصحابه بأنهم فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً.

وقد رأينا فيما سبق كيف أن فرعون وأعوانه، قد أشاعوا عن موسى ـ عليه السلام ـ كثيراً من الأراجيف الباطلة، والأقوال الزائفة، بأن وصفوه بأنه ساحر، وبأنه كذاب، وبأنه مجنون، وبأنه مفسد فى الأرض، وبأنه يريد أن يبدل الدين. . . .

وأنهم ما أشاعوا هذه الإشاعات الكاذبة عن هذا الرسول الكريم، الذى هو واحد من أولى العزم من الرسل، إلا من أجل تنفير الناس منه، وصدهم عن اتباعه؛ لأن اتباعه يؤدى إلى زوال ملك الظالمين، وعلى رأسهم فرعون الذى جمع عامة رعيته وقال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤).

ـ ٢ ـ

ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها فرعون وجنده عن موسى ـ عليه السلام ـ: زعمهم للناس أن موسى ما جاء بدعوته إلا من أجل الحصول على العظمة والسلطان عليهم، وأنه ما يريد بدعوته الخير لهم. . .

ولقد حكى القرآن هذه الإشاعة الكاذبة عنهم فى آيات متعددة، منها قوله - تعالى -: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٧٨).

أى: قال فرعون وحاشيته لموسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالحق المبين: أجئتنا بما جئتنا به لتبعدنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا، ولكى تكون لك ولأخيك هارون السيادة والزعامة الدينية والدنيوية فى الأرض بصفة عامة، وفى أرض مصر بصفة خاصة.

ثم أنكروا ما جاءهم به موسى وهارون - عليهما السلام - من الدين الحق فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أى: وما نحن لكما بمصدقين فيما جئتنا به؛ لأن تصديقنا لكما، يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا، وينزع منا ملكنا الذى يتمتع بكبريائه وشهواته زعماؤنا، ويعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا وبسطاؤنا . . .

وأفردوا موسى - عليه السلام - بالخطاب فى قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾؛ لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم، ويكشف عن غرورهم وغبائهم.

وجمعوا بين موسى وهارون - عليهما السلام - فى قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾، باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر.

والذى يتدبر هذه الآية الكريمة، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون، هى تهمة قديمة جديدة؛ فقوم نوح - عليه السلام - امتنعوا عن قبول دعوته؛ لأنه فى نظرهم جاء بما جاء به، بقصد الرياسة عليهم، لا بقصد هدايتهم أو إصلاحهم.

وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٣ ، ٢٤).

-٣-

ومن أقبح الإشاعات التى لا أساس لها، والتى ألصقها فرعون وجنده بموسى - عليه السلام -: زعمهم أن موسى إنسان ضعيف الشخصية، لا يُحسن النطق بما يريد النطق به . . .

وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ (الزخرف: ٥١ - ٥٦).

أى: أن فرعون جمع زعماء قومه وقال لهم - بعد أن خشى إيمانهم بموسى - عليه السلام -: يا قوم أليس لى ملك مصر، بحيث لا ينازعنى فى ذلك منازع، ولا يخالفنى فى ذلك مخالف، وفضلا عن كل ذلك، فإن هذه الأنهار التى ترونها من النيل تجرى من تحت قدمى، أو من تحت قصورى، أفلا ترون ذلك بأعينكم، وتستدلون به على قوة أمرى، وسعة ملكى، وعظم شأنى؟!

ثم عقد مقارنة بينه وبين موسى - عليه السلام - ليحرضهم من ورائها على الاستخفاف بشأن هذا النبى الكريم، فأسند إليه كل نقص، فقال: أليس أنا خير من هذا الذى يدعى النبوة، مع أنه مهين وفقير، وليس بصاحب ملك أو سطوة أو مال، وفى الوقت ذاته ﴿لا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أى: لا يكاد ينطق نطقا سليما واضحا الخلل فى لسانه؟!

ثم أضاف إلى ذلك تهوينا آخر من شأن موسى - عليه السلام - فقال: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؟

والأسْورة: جمع سوار، وهو كناية عن تمليكه، وكانوا إذا جعلوا رجلا ملكا عليهم، وَضعوا في يدَيه سوارين من ذهب، وطوقوه بطوق من معدن نفيس، علامة على أنه ملكهم.

أي: فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا، أن يحلى نفسه بأساور من ذهب، أو أن يجيء إلينا ومعه الملائكة محيطين به، ومصاحبين له؛ لكي يساعدوه ويشهدوا له بأنه نبي؟

ولا شك في أن هذه الأقوال التي تفوَّه بها فرعون في شأن موسى - عليه السلام -، تدل على شدة طغيانه، وعلى عظم غروره، وعلى قوة مكره، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه وسفاهتهم . . .

كما تدل على أنه كان يشعر في قرارة نفسه، بأن وجود موسى - عليه السلام - في الأمكنة التي يعيش فيها، والتفاف الناس من حوله، سيؤدي إلى زوال ملكه . . .

كما تدل هذه الأقوال التي ساقها فرعون، على أنه لم يترك شائعة كاذبة، أو تهمة باطلة، أو نقيصة خبيثة، إلا وألصقها بموسى - عليه السلام - لكي يبعد الناس عنه وعن دعوته، ولكي يجعلهم ينفرون منه، ومن كل من يلوذ به.

ورحم الله الإمام ابن كثير، فقد قال عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه: «وهذا الذي قاله فرعون في شأن موسى - عليه السلام - كَذبٌ واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، أنه كان ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين حاقده، وقد كان موسى - عليه السلام - من الجلالة والعظمة والبهاء، في صورة تبهر أبصار ذوى الألباب.

وقول فرعون في شأن موسى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾: افتراء - أيضا -، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال الصغر شيء من العطب، فقد سأل ربه بعد ذلك أن يحل عقدة من لسانه، فاستجاب الله - تعالى - له، وفرعون إنما أراد بهذا الكلام، أن يخدع رعيته، وأن يصرفهم عن الاستماع إلى موسى - عليه السلام -».

وقوله - عز وجل -: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ بيان لما كان عليه فرعون من مكر وخداع، ولما كان عليه أتباعه من جهل وانطماس بصيرة . . .

فماذا كانت عاقبته وعاقبتهم؟

كانت عاقبة الجميع الهلاك والدمار، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أى: فحين أغضبونا وأصروا على فسوقهم ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ أى: قدوة لمن بعدهم فى الكفر والفسوق والعصيان، وفى استحقاق العقوبة التى حلت بهم وبأمثالهم . . .

كما جعلناهم ﴿مَثَلاً﴾ أى: عبرة وعظة ﴿لِّلآخِرِينَ﴾ أى: الذين يعملون مثل أعمالهم.

ـ ٤ ـ

ومن كل ما تقدم نرى بوضوح، أن فرعون وأعوانه، لم يتركوا إشاعة كاذبة، أو تهمة باطلة، إلا ونسبوها إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقد وصفوه بأنه ساحر وكذاب ومجنون ومتكبر ومهين ولا يحسن الكلام أو النطق بما يريد النطق به . . .

وقد رد موسى ـ عليه السلام ـ على هذه التهم الباطلة، وعلى تلك الإشاعات الكاذبة، بما يهدمها وبما يخرس ألسنة قائلها، وبما يحق الحق ويبطل الباطل.

وليس عجيبا أن يبذل فرعون وحاشيته نهاية جهدهم فى إشاعة السوء حول موسى ـ عليه السلام ـ لأنهم ما فعلوا ذلك إلا دفاعا عن ملكهم وعن شهواتهم وعن حياتهم الطافحة بالظلم لغيرهم . .

ولكن العجيب أن نرى من أرسل الله ـ تعالى ـ موسى ـ عليه السلام ـ لهدايتهم ولإنقاذهم من ظلم فرعون ولمنحهم الحرية الإنسانية . .

أن نرى هؤلاء الذين أرسل الله ـ تعالى ـ موسى لنصرتهم ولعزتهم ولإصلاحهم، وهم بنو إسرائيل، نراهم يشيعون ـ أيضا ـ الإشاعات الكاذبة عن نبيهم ورسولهم موسى ـ عليه السلام . . .

فهم يزعمون أن وجوده بينهم لم ينفعهم بشىء؛ لأن المصائب التى حلت بهم لم ترفع عنهم لا قبل وجود موسى ـ عليه السلام ـ ولا بعد وجوده بينهم . . .

فقد نصحهم ـ عليه السلام ـ بالثبات والصبر والاعتماد على خالقهم فقال لهم: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

فردوا عليه بقولهم: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾.

أى: قالوا لنبيهم موسى: لقد أصابنا الأذى من فرعون من قبل أن تأتينا يا موسى برسالتك، وأصابنا كذلك من بعد مجيئك إلينا برسالتك، فنحن لم نستفد منك أو من رسالتك شيئًا؟!

بل بلغ السفه وسوء الأدب ببنى إسرائيل أن وصفوا نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وهو واحد منهم، أنهم أشاعوا عنه أن به عيبا بجسده، ففى الحديث الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن موسى ـ عليه السلام ـ كان رجلا حييا ستِّيرا لا يرى من جسده شيء، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل، وقالوا: إن موسى ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده، إما برص، وإما آفة. وإن الله ـ تعالى ـ أراد أن يبرئه مما قالوا، وأن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا على ثوبه، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، حتى انتهى إلى بنى إسرائيل، فرأوه كأحسن ما خلق الله ـ تعالى ـ وأبرأه مما قالوا، فذلك معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (الأحزاب: ٦٩).

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الصف: ٥).

والحق، أن موسى ـ عليه السلام ـ قد تعرض من أعدائه لألوان من الإشاعات الكاذبة، إلا أن الله ـ تعالى ـ أيده بالحجج التى دمرت كذب أعدائه، ونصره عليهم نصرا عزيزا.

جانب مما أشاعه المشركون عن نبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ

ـ ١ ـ

عندما تطهر النفوس، وتصفو القلوب، وتسلم العقول، تزدهر ألوان السعادة، وأنواع الخير، بين الأفراد والجماعات؛ لأن الله ـ تعالى ـ اقتضت سنته أنه لا يضيع أجر المحسنين، ولا يخيب سعى الصادقين.

أما إذا انتكست النفوس، وفسدت القلوب، وانطمست العقول، واستحوذ الشيطان على كيان إنسان؛ فإن الفضائل عنده تتحول إلى رذائل، والطهارة إلى نقائص!!

انظر إلى المنكوسين من قوم لوط ـ عليه السلام ـ لقد تآمروا فيما بينهم، على طرد نبيهم ومن آمن به من ديارهم، وقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦).

فهؤلاء الذين خبثت نفوسهم من قوم لوط ـ عليه السلام ـ، يرون أن الطهارة والعفاف والاستقامة وما يشبه ذلك من فضائل، يرونها رذائل، والمتمسكون بها يستحقون الطرد من الديار.

ـ ٢ ـ

وليس قوم لوط ـ عليه السلام ـ وحدهم، هم الذين ضاقوا ذرعا بالأطهار الأخيار، بل إن جميع الظالمين الجاحدين للحق، قد حاربوا رسل الله عز وجل، ووقفوا من جميع المصلحين، موقف العداوة والطغيان.

ومن هؤلاء الظالمين الجاحدين للحق، الذين مردوا على الرذائل حتى صارت فى زعمهم فضائل: المستكبرون من قوم شعيب - عليه السلام.

وشعيب - عليه السلام - هو واحد من الرسل الكرام، ينتهى نسبه إلى سيدنا إبراهيم، فهو شعيب بن ميكيل، بن يشجر، بن مدين، بن إبراهيم - عليه السلام.

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا ذكر شعيبا - عليه السلام - قال: ذاك خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، ولقوة حجته، ولعظم حكمته.

أرسله الله - تعالى - إلى أهل مدين، الذين كانوا يعبدون الأصنام، ويطففون فى المكيال والميزان، فماذا كان موقف أكثرهم من هذا النبى الكريم، الذى وصفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه خطيب الأنبياء؟

- ٣ -

لقد كان موقفهم منه، موقف الجحود والعناد والغرور والاستهزاء به وبدعوته، فقد أخذوا يشيعون عنه أنه مجنون، وأنه ليس أهلا للنبوة، وأنه كاذب فى كل ما يقوله، وأنه لو كان صادقًا لنزل بهم العذاب الذى هددهم به.. ومقصدهم من هذه الإشاعات الباطلة، منع الناس من اتباعه..

ومع كل ذلك، فإن شعيبا - عليه السلام - مضى فى دعوته لهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده، وإلى الوفاء فى المكيال والميزان.

وفى سورة «الشعراء» آيات كريمة، قصت علينا جانبا من دعوته لهم بأسلوب بليغ حكيم، ومن رد الجاحدين المتكبرين من قومه عليه، بطريقة فيها ما فيها من التطاول والأراجيف التى لا صحة لها.

قال - تعالى -: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) ﴾.

والأيكة: منطقة مليئة بالأشجار، كان قوم شعيب - عليه السلام - يسكنون فيها، ومكانها - فى الغالب - بين بلاد الحجاز وبلاد الشام.

أى: كذب قوم شعيب رسولهم الذى جاء لهدايتهم، وتكذيبهم له هو تكذيب لكل رسول أرسله الله - تعالى -.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أى: وما أسألكم على نصحى لكم أجرا أو مالا، وإنما أطلب أجرى من خالقى رب العالمين.

ثم نهاهم عن أقبح الرذائل التى كانت منتشرة فيهم فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾.

والجبلّة: الجماعة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب - عليه السلام -.

والمقصود بهم: أولئك الذين كانوا ذوى قوة كأنها الجبال فى صلابتها ومتانتها، كقوم هود وأمثالهم ممن اغتروا بقوتهم، فقطع الله - تعالى - دابرهم.

والمعنى: أن شعيبا - عليه السلام - نصح قومه بالوفاء فى المكيال والميزان، بأن قال لهم: يا قوم كونوا عادلين فى معاملاتكم لغيركم، واحذروا أن تأخذوا شيئًا ليس من حقكم، والتزموا القسط والعدل فى الميزان والمكيال، وابتعدوا عن نشر الفساد فى الأرض، واتقوا الله الذى خلقكم وخلق السابقين عليكم.

- ٤ -

بهذه الكلمات الجامعة لألوان الخير نصح شعيب قومه، فماذا كان ردهم عليه؟

كان ردهم عليه ردا سيئًا، بأن أشاعوا عنه بين الناس أنه مختل فى تفكيره، وبأنه شخص يغلب عليه عدم الصدق، وبأنه لو كان صادقا لنزل بهم ما توعدهم به من عذاب!!

واستمع إلى ما قالوه فى شأنه، كما حكاه القرآن عنهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

أى: قالوا لنبيهم بسفاهة وغرور: إنما أنت من الذين أصيبوا بسحر عظيم، جعلهم لا يعقلون ما يقولون، شأنهم فى ذلك شأن من ذهبت عقولهم، وفضلا عن ذلك فأنت بشر مثلنا، ولا مزية لك برسالة أو نبوة علينا، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تقوله وتدعيه، فإن كنت صادقا فى رسالتك، فأسقط علينا قطعا من العذاب الكائن من جهة السماء!!

ولكن شعيبا ـ عليه السلام ـ قابل استهتارهم به، وتطاولهم عليه، وإشاعتهم السوء عنه، بقوله ـ وهو خطيب الأنبياء ـ: ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى: قال لهم: ربى وحده هو العليم بأقوالكم وبأعمالكم وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب أليم.

ـ ٥ ـ

وفى سورة «الأعراف» بضع آيات، تحدثت عن النصائح الغالية التى نصح بها شعيب قومه، كما تحدثت عن التهديدات السافرة، وعن الأراجيف الباطلة التى واجهه بها قومه.

هذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾.

أى وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

أى: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصدقى، وبصحة نبوتى، وهذه المعجزة ليست من عندى بل هى من عند ربى وربكم.

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى: ولا تنقصوهم حقوقهم.

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ .

أى : ولا تقعدوا بكل طريق تهددون من آمن بى ، وتمنعونه من اتباع الحق ، وتصفون الطريق المستقيم بالاعوجاج .

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم ويحذرهم من جحودها فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ، وأن يتركوا أتباعه أحرارا فى عقيدتهم ، حتى يحكم الله ـ تعالى ـ بحكمه العادل بين الفريقين فقال : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

وارجع البصر ـ أيها القارئ الكريم ـ فى هذه النصائح ، ترى شعيبا ـ عليه السلام ـ يأمر قومه بوحدانية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى كانت متفشية فيهم ، فينهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان ، وعن تهديد الآمنين ، وعن الإفساد فى الأرض ، وعن نشر الإشاعات الكاذبة ، والأراجيف الباطلة ، مستعملا فى وعظه ونصحه الترغيب تارة ، والترهيب تارة أخرى .

ـ ٦ ـ

ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب ـ عليه السلام ـ هذه النصائح تقبلا حسنا ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ . أى : قال الزعماء المتكبرون من قوم شعيب له .

﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ .

أى : قال المتكبرون المغرورون من قوم شعيب له : إن أمامك خيارين لا ثالث لهما ، إما أن تخرج يا شعيب أنت ومن آمن بك من قريتنا ، وتفارقونا إلى غير رجعة ، وإما أن تعودوا إلى ملتنا وهى عبادة آلهتنا .

وهنا يرد عليهم خطيب الأنبياء شعيب ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أى : أتجبروننا على العودة إلى ملتكم ودينكم وعقيدتكم حتى ولو كنا كارهين لها ، لإيماننا بأنها باطلة؟!

ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم فقال : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

أى : يا ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سنتك ، وأنت خير الحاكمين ، وأعدل العادلين .

وهنا نلمح أن الزعماء الجاحدين للحق من قوم شعيب ، قد يئسوا من استمالته وأتباعه إليهم وإلى ملتهم ، فأخذوا ينشرون الإشاعات الكاذبة حوله وحول المؤمنين بدعوته ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ .

أى : وقال الزعماء الكافرون من قوم شعيب لعامة الناس سواهم : أيها الناس إنكم لو اتبعتم شعيبا لخسرتم شرفكم ، ولخسرتم ملتكم التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم ، ولخسرتم ثروتكم التى جمعتموها عن طريق التطفيف فى المكيال والميزان .

وهكذا حاول الطغاة الجاحدون للحق ، أن يصرفوا الناس عن دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ بكل إشاعة كاذبة .

-٧-

وفى سورة «هود» - عليه السلام - نجد أكثر من عشر آيات، تسوق لنا جانبا من الإرشادات السامية، والتوجيهات العالية، التى ينصح بها شعيب - عليه السلام - قومه، فهو بعد أن يأمرهم بإخلاص العبادة لخالقهم، وبالتحلى بمكارم الأخلاق، وبالتعفف عن الحرام . . بعد كل ذلك يقول لهم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

ولكن الظالمين من قومه يشيعون بين الناس أن شعيبا رجل ضعيف، وأن عبادته باطلة، وأنه موضع استهزائهم وسخريتهم؛ لأنهم لا يفهمون منه شيئًا.

واستمع إلى ما حكاه القرآن عنهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

ولقد كانت نتيجة طغيانهم وكذبهم على نبيهم، أن دمرهم الله - تعالى - تدميرا، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ - أى: هالكين - ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

أى: كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك معيشة ملؤها الرغد والرخاء - ﴿أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

أى: ألا هلاكا مصحوبا بالطرد من رحمة الله لقبيلة مدين، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود.

وهكذا تكون عاقبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا.

جانب مما أشاعه أعداء الحق عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ ١ ـ

لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل، إنسانا تعرض لألوان من الإشاعات الكاذبة، ومن الأراجيف الباطلة، ومن التهم التي لا أساس لها، كما تعرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فقد أشاع عنه أعداؤه، أنه مجنون، وأنه كاهن، وأنه ساحر، وأنه شاعر، وأنه لم يأت بمعجزة تدل على صدقه، وأن الإيمان به سيؤدي إلى أن يتخطفهم الناس، إلى غير ذلك من الأراجيف التي أشاعها عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعداء الحق، والتي استمرت منذ أن أرسله الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، إلى قبيل انتقاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الرفيق الأعلى.

ـ ٢ ـ

ومما يشير إلى أن أعداءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخذوا في نشر الإشاعات الكاذبة عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن سورة «المدثر» وهي من أوائل السور القرآنية التي نزلت عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ذكرت آيات تدل على اتهام المشركين له بأنه يتعاطى السحر، وهذه الآيات هي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾.

-٣-

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى «الوليد بن المغيرة» وذكروا فى ذلك روايات منها: أن المشركين اجتمعوا فى دار الندوة، ليتشاوروا فيما يقولونه فى شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن القرآن، فقال بعضهم: هو شاعر. وقال آخرون: بل هو كاهن، وقال فريق ثالث: بل هو مجنون. وأخذ الوليد بن المغيرة يفكر ويرد عليهم، ثم قال بعد أن فكر وقدر: «ما هذا الذى يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا سحر يؤثر!! أما ترونه يفرق بين الرجل وامرأته، وبين الأخ وأخيه..»!!

-٤-

ومعنى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾: اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما يقوله أعداؤك فيك من كذب وبهتان، واتركنى وهذا الذى خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته الكثير من النعم فلم يشكرنى على ذلك.

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴾ أى: وجعلت له مالا كثيرا واسعا يمد بعضه بعضا.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ أى: وجعلت له إلى جانب هذا المال الكثير، أولادا يشهدون مجالسه.

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى: وفوق كل ذلك، هيأت له وسائل الراحة والرياسة وتيسير الأمور.

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أى: ثم إن هذا المغرور بجانب كل هذه النعم، يريد المزيد لشرهه وطمعه.

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى: لا لن أعطيه شيئا مما يطمع فيه، بل سأزيل هذه النعم من بين يديه؛ لأنه، قابلها بالجحود والبطر، ولأنه إنسان شديد الحقد والحسد لغيره، ودائم المحاربة للحق، والتكذيب لآياتنا الدالة على صدق رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أى: سأنزل به العذاب الذى لا يطيقه، والذى لا قدرة له على دفعه.

-٥-

ثم صور - سبحانه - صورة هذه الشقى بطريقة تثير السخرية منه فقال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾.

أى: إنه ردد فكره وأداره فى ذهنه، وهيأ فى نفسه كلاما خبيثا يقوله فى حق الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

وقوله - سبحانه -: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تفكيره وتقديره، وذم شديد له على هذا التفكير السيئ.

أى: إنه فكر طويلا فيما يقوله فى حق الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أقوال كاذبة، لعنه الله - تعالى - بسببها.

وقوله - سبحانه -: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ تصوير بديع آخر لحالة هذا الشقى، تصوير يرسم حركات جسده، وتقاطيع وجهه.

أى: إنه فكر مليا، وقدر ما سيقوله، ثم نظر فى وجوه من حوله نظرات يكسوها الجد المصطنع، حتى لكأنه يقول لهم: اسمعوا وعوا لما سأقوله لكم.. ثم قطب ما بين عينيه.. ثم أدبر عن الحق، واستكبر عن قبوله.

ثم قال بعد كل ذلك على سبيل الغرور والجحود: ما هذا الذى يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما هذا الذى يقرؤه علينا، سوى سحر مأثور ومروى عن الأقدمين، وليس من كلام الله - تعالى - وإنما هو من كلام البشر.

فأنت ترى من هذه الآيات الكريمة، أن هذا الشقى وأمثاله من المشركين، قد أشاعوا الإشاعات الكاذبة، حول النبى - صلى الله عليه وسلم - وحول ما جاء به من قرآن من عند ربه - تعالى - فى وقت مبكر، قد يكون منذ أن أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالجهر بدعوته.

-٦-

وفى سورة «ص» وهى من السور المكية الخالصة، نرى أعداءه - صلى الله عليه وسلم - لا يكتفون باتهامه بالسحر، بل يضيفون إلى ذلك أنه كذاب، مع أنهم قبل بعثته - صلى الله عليه وسلم - كانوا يصفونه بالصادق الأمين، ولكنه لأنه - صلى الله عليه وسلم - قد جاءهم بما يخالف أهواءهم، ولأنهم قد ملأ الحسد والتعصب الأعمى قلوبهم، نشطوا فى محاربته، وفى نشر الأراجيف الباطلة، والشائعات الكاذبة من حوله، حتى ينصرف الناس عنه وعن دعوته.

وتدبر الآيات الكريمة من سورة «ص» وهى تحكى كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

-٧-

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها: أن جماعة من زعماء مشركى قريش، اجتمعوا فيما بينهم وقالوا: انطلقوا بنا إلى أبى طالب - عم النبى - صلى الله عليه وسلم - لكى نكلمه فى شأن ابن أخيه، فلما دخلوا على أبى طالب قالوا له: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فإنه قد عاب آلهتنا، وأتانا بدين جديد، فمره فليكف عن ذلك!!

فقال أبو طالب للنبى - صلى الله عليه وسلم - يا بن أخى، هؤلاء زعماء قريش، وقد سألوك أن تكف عن تسفيه آلهتهم..!!

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: «يا عماه، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» فقال أبو طالب: وإلى أى شىء تدعوهم؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -: «أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها غيرهم».

فقال أبو جهل من بين القوم: وما هى هذه الكلمة، وأبيك؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها. فقال - صلى الله عليه وسلم -: «تشهدون أنه لا إله إلا الله».

فنفر أبو جهل وغضب وقال: سلنا غير هذا!!

وهنا رد عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدى، ما سألتكم غير هذا».

فقاموا غضابا وقالوا: والله لنشتمنك أنت وإلهك الذى أرسلك بهذا.

-٨-

ومعنى الآيات الكريمة: وعجب هؤلاء المشركون من مجيء منذر منهم، أى: رسول من عشيرتهم يعرفون حسبه ونسبه وطهارته وصدقه، يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق، وقالوا عندما كرر عليهم هذه الدعوة، ولم يتراجع عنها، قالوا: هذا الرسول وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - «ساحر»؛ لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها، و«كذاب» فيما ينسبه إلى نفسه من أن الله - تعالى - قد أمره بذلك الكلام الذى يقوله.

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل، أقوالا أخرى لا تقل عن غيرها فى البطلان، وفى إشاعة السوء عنه - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾.

والاستفهام للإنكار. أى: أجعل محمد - صلى الله عليه وسلم - الآلهة المتعددة التى نعبدها، والتى من بينها: اللات، والعزى وغيرهما، أجعلها إلها واحدا، وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أى: إن هذا الذى يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو عبادة إله واحد، لشيء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل!!

وهكذا الحاقدون الجهلاء، يرون الخير شرا، والفضيلة رذيلة، والحق باطلا، كما يرون أن الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده، شيء من المستحيل أن تقبله عقولهم، لأنه مخالف مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة الأصنام، وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، فهو - فى زعمهم - متجاوز الحد فى العجب!!

-٩-

ثم صور القرآن الكريم حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق تصويرا بديعا فقال: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

أى: وانطلق زعماء مشركى قريش من مجلس أبى طالب، بعد أن سمعوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أغضبهم وخيب سعيهم. انطلقوا وهم يقول بعضهم لبعض: اثبتوا على عبادة أصنامكم، مهما هون من شأنها محمد - صلى الله عليه وسلم - ومهما نهى عن عبادتها، فإن هذا الذى يدعونا إليه من عبادة الله - تعالى - وحده، لشىء يراد من جهته هو وحده، وهو مصمم عليه كل التصميم، أما نحن فمن جانبنا أكثر تصميما على مخالفته ومحاربته، وعلى عبادة آلهتنا، وسنبذل كل ما نستطيع من جهد لإشاعة ما يجعل الناس يبتعدون عنه.

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾.

أى: ما سمعنا بهذا الدين الجديد الذى يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا، ولا فيما حدثنا عنه الكهان، وما هذا الذى يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا كذب افتراه من عند نفسه دون أن يسبقه إليه أحد.

ثم صرحوا فى نهاية المطاف بالسبب الحقيقى الذى حال بينهم وبين الإيمان، ألا وهو الحقد والحسد له - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟

أى: كيف يدعى محمد أنه رسول من عند الله مع أن فينا من هو أغنى منه، ومن هو أعظم منه شأنا..؟

وهذا السبب الحقيقى وهو الحسد الذى ملأ قلوب الجاحدين للحق، هو الذى حملهم على نشر الإشاعات الكاذبة، التى سنذكر بعد ذلك صورا منها بإذن الله - تعالى - وتوفيقه.

جانب آخر مما أشاعه أعداء الحق عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ ١ ـ

عندما تسلم العقول من الانحراف، وتصفوا النفوس من الأحقاد، وتطهر القلوب من القبائح، وتمتلئ المشاعر بالإيمان الصحيح.. ينتشر الخير بين الناس، ويتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

أما عندما تتجه العقول إلى اعتناق الباطل، وتأبى النفوس قبول الحق، وتستولى على القلوب المطامع والأنانية والأهواء، وتسود العصبية البغيضة، والعنصرية المقيتة بين الناس، فإن الفضائل تتحول إلى رذائل، والحق ينقلب باطلا، والمعروف يصير منكرا.. وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر: ٨).

ـ ٢ ـ

لقد أجمعت النقول السليمة، والعقول القويمة، على أن الذين نشروا الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، هم الذين مدحوه مدحا عظيما قبل بعثته، أى: قبل أن يبلغ سن الأربعين من عمره، وهم الذين وصفوه طوال أربعين سنة بأنه الصادق الأمين..

أما بعد بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد تحول مدحهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ

إلى ذم، وحبهم إلى كراهية، ولم يتركوا وسيلة من وسائل إيذائه ومعارضته إلا وأذاعوها ضده.

لقد أشاعوا عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما ذكرنا ذلك سابقا ـ أنه ساحر، وحكى القرآن ذلك عنهم فى أكثر من عشرة مواضع، منها قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (ص: ١ ـ ٤).

ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾(القمر: ١، ٢).

ومنها قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس: ١، ٢).

وهكذا نرى أن أعداءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ألصقوا به تهمة السحر، منذ أن بعثه الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين.

ـ ٣ ـ

ولكن هل اكتفى أعداء الحق بإشاعة أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتعاطى السحر؟ كلا، إنهم لم يكتفوا بذلك، بل اتهموه ـ أيضا ـ بأنه مجنون، وأخذوا ينشرون هذه التهمة على أوسع نطاق لهم.

ويبدو أن هذه الإشاعة الكاذبة، قد نشروها عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ أوائل بعثته ـ أيضا ـ، بدليل أن سورة «القلم» التى عدها الإمام السيوطى فى كتابه «الإتقان» أنها السورة الثانية فى ترتيب النزول، قد حكت عن المشركين أنهم قد اتهموا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنون.

قال ـ تعالى ـ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

والمعنى : إنك يا محمد وحق القلم الذى يكتب به الكاتبون، إنك لمبرأ مما اتهمك به أعداؤك من الجنون، وكيف تكون مجنونا وقد أنعم الله ـ تعالى ـ عليك بالنبوة والحكمة؟!

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة، تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما اتهمه به المشركون من جنون، ودفع إشاعاتهم الكاذبة بما يأتى عليها من القواعد فيهدمها، وإثبات أنه رسول من عند الله ـ عز وجل ـ.

وأقسم ـ سبحانه ـ بالقلم لعظيم شرفه، ولكثرة منافعه، إذ به كتبت الكتب السماوية، وبه كتبت العلوم المفيدة، وبه يحصل التعارف بين الناس. ورحم الله القائل:

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم   وعدُّوه مما يُكْسب المجد والكرَمْ
كفى قلمُ الكُتَّابِ عزًا ورفعةً   مدَى الدهرِ أن الله أقسَم بالقلَمْ

ـ ٤ ـ

ونفى ـ سبحانه ـ عن رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجنون بأبلغ أسلوب، لأن المشركين كانوا مصرين على إلصاق هذه التهمة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ثم بشره ـ سبحانه ـ بجملة من البشارات تكريما وتشريفا وتسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أى: وإن لك ـ أيها الرسول الكريم ـ عندنا، لأجرا عظيما غير مقطوع بل هو متصل دائم.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أى: وإنك يا محمد لعلى دين عظيم، وعلى خلق كريم، وعلى سلوك قويم، فى كل ما تأتيه وفى كل ما تتركه من أقوال وأفعال.

والتعبير بلفظ «على» المفيد للاستعلاء، يشعر بتمكنه - صلى الله عليه وسلم - ورسوخه في كل خلق كريم، وهذا أبلغ رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون؛ لأن الجنون سفه لا يحسن معه التصرف، أما الخلق العظيم، فهو أرقى في منازل الكمال.

وإن القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية من ثناء من الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم -.

ولقد سأل بعض الصحابة السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن معنى هذه الآية فقالت له: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. فقالت له: فإن خُلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان القرآن.

أي: أنه - صلى الله عليه وسلم - كان امتثاله لأوامر القرآن ولنواهيه، خلقا وطبعا وسجية وسلوكا.

ثم بشر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - ببشارات أخرى فقال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

أي: لقد بينا لك - أيها الرسول الكريم أنك أفضل الخلق على الإطلاق، وأنك أكملهم عقلا، فامض في طريقك ولا تلتفت إلى أولئك الحاسدين الجاحدين للحق، وسترى وسيرون أي فريق منكم هو المصاب بالجنون، أفريق المؤمنين أم فريق المشركين؟

واعلم أيها الرسول الكريم أن ربك الذى خلقك وخلقهم، هو الأعلم بمن ضل عن طريق الحق، وهو الأعلم بالمهتدين.

- ٥ -

وفي سورة «سبأ» آية كريمة، أمر الله - تعالى - فيها رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهؤلاء الذين وصفوه بالجنون: راجعوا أمركم، وليتفكر كل واحد منكم على انفراد أو مع شخص آخر في أمري؛ فسيجد أني على الحق، وأني مبرأ من كل ما لا يليق بي من جنون أو غيره.

وهذه الآية هى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦ ﴾ .

أى: قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الذين أشاعوا عنك أنك مجنون، قل لهم: إنما أعظكم وآمركم وأوصيكم بكلمة واحدة، وهذه الكلمة هى أن تجتمعوا اثنين اثنين أو واحدا واحدا، ثم تتفكروا بإخلاص وبموضوعية وروية، فسترون بكل تأكيد أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس به شىء من الجنون، وإنما هو أرجح الناس عقلا، وأصدقهم قولا، وأوسعهم علما، وأفضلهم عملا، وأزكاهم نفسا، وأنقاهم قلبا، وأجمعهم لكل كمال بشرى.

وهو فى الوقت ذاته نذير لكم، يحذركم من العذاب الشديد إذا ما بقيتم على شرككم وعنادكم.

ـ٦ـ

فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل اثنين بموضوعية وإنصاف فى أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم يعرض كل واحد منهما حصيلة فكره على صاحبه، أو أن يفكر كل واحد منهم على انفراد ـ أيضا ـ فى شأن هذا الرسول، من غير تعصب أو خضوع للهوى والشيطان.

وقدم ـ سبحانه ـ الاثنين فى القيام على المنفرد؛ لأن تفكير الاثنين فى الأمور بإخلاص واجتهاد، أفضل فى الوصول إلى الحق، من تفكير الشخص الواحد.

ولم يأمرهم بأن يتفكروا فى جماعة؛ لأن العقلية الجماعية كثيرا ما تتبع الانفعال الطارئ، وقلما تتريث فى الحكم على الأمور.

ورحم الله صاحب الكشاف، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها، أصبتم الحق، وتخلصتم من الباطل، وهى: أن تقوموا لوجه الله خالصا، متفرقين اثنين اثنين، وواحدا واحدا، ثم تتفكروا فى أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به.

أما الاثنان: فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح، والنظر الصحيح على جادة الحق.

وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل وروية، من غير مكابرة أو حسد، ثم يعرض فكره على عقله وذهنه، وما استقر عنده من عادات العقلاء، ومن مجارى أحوالهم.

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمى البصائر، ويمنع الروية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف»

والخلاصة: أن هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات القرآنية، التى نفت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تهمة الجنون، التى أشاعها عنه الجهلاء الحاقدون، وردت عليهم بأسلوب منطقى حكيم، ردا يكبتهم، ويجعل كل عاقل يسخر منهم.

-٧-

وفى القرآن الكريم آيات أخرى متعددة، قصت علينا أن المشركين قد مردوا على اتهام النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجنون، وأشاعوا ذلك بين الناس لكى ينصرفوا عن دعوته.

ومن هذه الآيات قوله - تعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؟ (الأعراف: ١٨٤).

والمعنى: أكذب هؤلاء الظالمون رسولهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - وأذاعوا عنه أنه مجنون؟ وهم كاذبون فى ذلك لأنه أكمل الناس عقلا، وأفضلهم رأيا، وأنقاهم نفسا، وأطهرهم قلبا، ووظيفته - صلى الله عليه وسلم - إنما هى الإنذار لهؤلاء الجاحدين، وإعلامهم بأنهم إذا استمروا فى عنادهم فسينزل بهم العذاب الأليم.

ومن هذه الآيات - أيضا - قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر: ٦).

أى : وقال مشركو قريش لرسولهم ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سبيل الاستهزاء والتهكم : يا أيها المدعى أن الوحى ينزل عليك بهذا القرآن الذى تتلوه علينا ، إنك لمجنون قد ذهب عقلك ؛ لأنك تطلب منا أن نتبعك ، وأن نترك ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا .

ومن هذه الآيات كذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون : ٧٠) .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؟! (الصافات : ٣٦) .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (الطور : ٢٩) .

ولقد رد القرآن الكريم على هذه الشائعات الكاذبة التى اتهم فيها المشركون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه مجنون ، رد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وبما يزيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثباتا على ثباته ، وتكريما على تكريمه ؛ لأن سنته ـ سبحانه ـ قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .

جانب ثالث مما أشاعه أعداء الحق عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

- ١ -

من مزايا أسلوب القرآن الكريم، أنه ساق التهم والأكاذيب، التى ألصقها أعداء الحق بالأنبياء وبالمصلحين، ثم رد عليها بما أزهقها وأبطلها، كما قال - سبحانه -: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (سورة الأنبياء: ١٨).

ولقد ذكرنا فيما سبق، أن الزعماء من مشركى قريش، قد أشاعوا عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه ساحر، وأنه مجنون، وحكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى آيات متعددة، ورد عليهم بما يمحق هذه الشائعات، وبما يزيد النبى - صلى الله عليه وسلم - ثباتا على ثباته، وبما يزيد أتباعه إيمانا على إيمانهم.

نرى ذلك فى قوله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذاريات: ٥٢، ٥٣).

وفى قوله - سبحانه -: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (فصلت: ٤٣).

أى: لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من الأقوال الباطلة، ومن الشائعات الكاذبة، التى تفوه بها المشركون فى حقك، فإن ما قالوه فى شأنك، قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم، وما دام الأمر كذلك فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل من قبلك، وإن ربك الذى تولاك برعايته، لذو مغفرة عظيمة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ولذو عقاب أليم لمن أصر على كفره وفسوقه وعصيانه.

فهذه الآية الكريمة من أجمع الآيات القرآنية، فى تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنها كأنها تقول له: إن ما أصابك من أذى، قد أصاب إخوانك، فاصبر كما صبروا.

-٢-

والمتدبر للقرآن الكريم، يراه قد ذكر أنواعا أخرى من الإشاعات الكاذبة، التى أذاعها المشركون عن النبى - صلى الله عليه وسلم - من أجل صرف الناس عنه وعن دعوته، فهم لم يكتفوا بوصفه - صلى الله عليه وسلم - بأنه ساحر، وبأنه مجنون، بل وصفوه - أيضا - بأنه شاعر، وبأنه - فى زعمهم - عما قريب سيعود إلى ما يوافق أهواءهم.

ومن الآيات القرآنية التى ذكرت عنهم ذلك، قوله - تعالى -: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: ٥).

والأضغاث: جمع ضِغْث، وأصله ما جُمِع من أنواع شتى من النبات، ثم حُزِم فى حزمة واحدة.

والأحلام: جمع حلم - بضم الحاء وسكون اللام - وهو ما يراه النائم من أحلام ليست حسنة.

والمعنى: إن هؤلاء المشركين من زعماء قريش، لم يكتفوا بما قالوه فى شأنك أيها الرسول الكريم، من أنك ساحر، أو من أنك مجنون، بل أضافوا إلى ذلك: أن القرآن الذى جئت به من عند ربك، والذى أنزله - سبحانه - على قلبك، ما هو إلا أخلاط كأخلاط الأحلام، وأنه أباطيل لا حقيقة لها، وأنك قد ألفته من عند نفسك، وأنك شاعر، وما أتيت به هو نوع من الشعر التخييلى الذى لا حقيقة له، ثم أضافوا إلى هذا التخبط والاضطراب قولهم: عليك يا محمد أن تأتينا بمعجزة كونية تدل على صدقك، كناقة صالح، وعصا موسى . . . فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك.

وكأنهم - لا نطماس بصائرهم وشدة جهالتهم - يرون أن القرآن ليس معجزة تدل على صدقه صلى الله عليه وسلم.

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة، قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويرا حكيما، شأنهم فى ذلك شأن الحائر المضطرب، الذى لا يستطيع الثبات على قرار، بل هو لتمحله وتعلله، ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلانا، ومن إشاعة كاذبة إلى ثانية أقبح منها فى الكذب.

-٣-

وفى سورة «الصافات» آيات كريمة، قررت أن أولئك الجاحدين المتكبرين، كانوا إذا ما دعاهم النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى إخلاص العبادة لخالقهم، استهزءوا به، وأشاعوا عنه الإشاعات الكاذبة.

وهذه الآيات، هى قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

والمعنى: إن هؤلاء الجاحدين المتكبرين كانوا فى الدنيا إذا قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو قال لهم المؤمنون على سبيل النصيحة: قولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، يستكبرون عن قبول هذه النصيحة، ويعرضون عنها، ويصرون على كفرهم، ويقولون لمن نصحهم: أتدعونا إلى أن نترك ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا من عقائد وأفعال، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون؟!

ويقصدون بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: ليس الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاعرا أو مجنونا، كما زعمتم - أيها الجاهلون - بل هو رسول صادق فى كل ما يبلّغه عن ربه، وقد جاءكم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، وبالحكمة التى لا يشوبها جهل.

- ٤ -

وفى سورة «الطور» بضع عشرة آية، أمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يمضى فى طريقه دون أن يهتم بأكاذيبهم، وحكت جانبا من تلك الشائعات الخبيثة التى قالوها فى حقه، ولقنته الجواب الماحق لها.

ومن هذه الآيات قوله - تعالى -: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

والفاء فى قوله - تعالى - ﴿فَذَكِّرْ﴾ للإفصاح عن كلام مقدر.

والكاهن: هو الإنسان الذى يزعم أنه يخبر عن الأشياء التى اختص الله - تعالى - بعلمها.

والمعنى: إذا كان الأمر كما سبق أن ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أوحينا إليك، فما أنت بسبب إنعام الله عليك بكاهن ولا مجنون، كما زعم أولئك الجاهلون.

ثم أخذت السورة الكريمة فى تقويم هؤلاء الجاهلين، بأسلوب استنكارى فيه ما فيه من التعجب من جهالاتهم، وفيه ما فيه من الرد الحكيم على سفاهاتهم، فساقت أقاويلهم بهذا الأسلوب الذى تكرر فيه لفظ «أم» خمس عشرة مرة، وكلها إلزامات ليس لهم عنها جواب.

وبدأت بقوله - تعالى -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾؟

أى: بل أيقولون عنك يا محمد إنك شاعر؟ وإنهم يترقبون موتك لكى يستريحوا منك، كما استراحوا من الشعراء الذين من قبلك، قل لهم على سبيل التبكيت والاستهزاء بعقولهم المتكسة: تربصوا وترقبوا موتى، فإنى معكم من المنتظرين، وستعلمون أينا خير مقاما، وأحسن عاقبة.

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات، أن جماعة من كبار مشركى قريش، اجتمعوا فى دار الندوة، وكثرت أقوالهم فى شأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى قال قائل منهم: تربصوا به ريب المنون، فإنه شاعر سيموت كما مات زهير والنابغة والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة.

ـ٥ـ

وفى سورة «يس» آيتان كريمتان، فيهما الرد الحكيم على أولئك السفهاء الذين أشاعوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه شاعر، وأن القرآن الكريم من شعره.

وهاتان الآيتان هما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

أى: وما علمنا عبدنا ورسولنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعر، وإنما الذى علمناه إياه هو القرآن الكريم، المشتمل على ما يسعد الناس فى دنياهم وفى آخرتهم.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة: نفى أن يكون القرآن شعرا بأبلغ وجه؛ لأن الذى علمه الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القرآن وليس الشعر، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعرا.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أى: ما علمناه الشعر، وإنما علمناه القرآن، فقد اقتضت حكمتنا أن لا نجعل الشعر فى طبعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا فى سليقته، وحتى لو حاوله ـ على سبيل الفرض ـ فإنه لا يتأتى له ولا يسهل عليه ولا يستقيم مع فطرته.

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾. يعود إلى القرآن الكريم.

أى: ما هذا القرآن إلا ذكر من الأذكار النافعة، والمواعظ الناجعة، والتوجيهات الحكيمة، وهو فى الوقت ذاته، كتاب مقروء من الكتب السماوية الواضحة، التى لا تختلط ولا تلتبس بكلام البشر.

وقد أنزلنا هذا القرآن على رسولنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينذر به من كان مؤمنا عاملا ذا قلب حى، ونفس نقية، وأذن واعية؛ لأن من كانت هذه صفاته انتفع بالإنذار والتذكير، أما من كان مصرا على شركه وعناده وجحوده للحق، فإن كلمة العذاب قد حقت عليه، وصارت نهايته الإلقاء به فى جهنم وبئس القرار.

-٦-

هذا، وقد تكلم المفسرون هنا كلاما مفصلا، عن كون القرآن ليش شعرا، وعن كون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس شاعرا.

ومن بين المفسرين الذين فصلوا القول فى هذه المسألة: الإمام الزمخشرى، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه: «كانوا يقولون - أى: المشركون - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - إنه شاعر، فرد عليهم الخالق - عز وجل - بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أى: أن القرآن ليس بشعر، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين القافية؟ وأين المعانى التى أخذها الشعراء من معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟!

وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى: وما يصح له، ولا يتأتى له إن طلبه. أى: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتسهل له، كما جعلناه أميا؛ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض.

ثم قال - رحمه الله - فإن قلت فقوله - صلى الله عليه وسلم -: أنا النبى لا كذب - أنا ابن عبد المطلب.

قلت: ماهو إلا كلام من جنس كلامه - صلى الله عليه وسلم - الذى كان يرمى به على السليقة، من غير صنعة ولا تكلف، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك، ولا التفات منه إذا جاء موزونا، كما يتفق فى كثير من إنشاءات الناس فى خطبهم ورسائلهم، أشياء موزونة، ولا يسميها أحد شعرا، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر..».

-٧-

وهكذا نجد القرآن الكريم، قد لقَّن النبى - صلى الله عليه وسلم - الإجابة التى تخرس ألسنة الذين أشاعوا عنه أنه ساحر أو مجنون أو شاعر، مما جعلهم ينقلبون على أعقابهم خاسرين.

ولكن هل كف أعداء الحق عن أراجيفهم وأكاذيبهم؟ هذا ما سنجيب عنه فى الصفحات التالية بإذنه - تعالى - وتوفيقه.

جانب رابع مما أشاعه أعداء الحق عن النبى - صلى الله عليه وسلم-

-١-

اقتضت سنة الله - تعالى - أن يجعل هذه الدنيا، صراعا بين الحق والباطل، ونزاعا بين الخير والشر، ومعركة بين الفضائل والرذائل.

وأحيانا نجد هذه المعارك يطول أمدها؛ لأن كل فريق يصر على موقفه، إلا أن النصر فى النهاية لابد أن يكون لأهل الحق لا لأهل الباطل، وللأخيار لا للأشرار، وللمتمسكين بالفضائل، لا للمنغمسين فى الرذائل.

وتلك سنة الله التى لا تتغير ولا تتبدل، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

لقد رأينا فيما سبق أن الزعماء من مشركى قريش، أشاعوا عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه يتعاطى السحر، وأن به مسّا من الجنون، وأنه شاعر أو كاهن، ولقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الإجابات التى تزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، وتزيد المصرين على جحودهم للحق رجسا على رجسهم، وقص علينا القرآن الكريم أراجيف أخرى، أذاعها المشركون عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ليصرفوا الناس عنه وعن دعوته، وهناك لون آخر من تلك الإشاعات الكاذبة.

-٢-

لقد أشاع زعماء الشرك بين أتباعهم، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو كان رسولا من عند الله - تعالى - حقا، لكان معه ملك من الملائكة يؤيده ويشهد بصدقه،

وما دام ليس معه هذا الملك، فهو ليس برسول، وعلينا أن نبتعد عنه، وأن نحارب دعوته بكل الوسائل!!

وقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام: ٨، ٩).

والمعنى: وقال زعماء الشرك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا محمد هلا كان معك ملك من الملائكة، لكي يشهد بصدقك، ولكي نسمع كلامه، ونرى هيئته، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك؟

فهم لا يريدون ملكا من الملائكة لا يرونه، وإنما يريدون واحدا من الملائكة يمشي معه ويشاهدونه بأعينهم، فإذا لم يفعل ذلك فهم لن يؤمنوا به، وكذلك غيرهم.

وقد رد الله ـ تعالى ـ على قولهم هذا بردين حكيمين، فيهما النصر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم، وفيهما التثبيت لأتباعه، وفيهما ما يكبت أعداءه.

أما الرد الأول: فهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾.

أي: ولو أنزلنا ملكا كما اقترح هؤلاء الجاحدون، وهم على ما هم عليه من الشرك والتعنت، لقضى الأمر بإهلاكهم، ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا به، أي لا يأخذهم العذاب آجلا، بل يأخذهم العذاب عاجلا، فقد مضت سنة الله فيمن قبلهم، أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا، يهلكهم الله ـ تعالى ـ ولا يريد ـ سبحانه ـ أن يهلك هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبب إجابة مقترحات أولئك المعاندين المستكبرين.

وأما الرد الثاني: فهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: ولو جعلنا الرسول من الملائكة ـ كما اقترحوا ـ لكانت الحكمة تقتضي أن نجعله في صورة بشر، ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذي يبلغه عن الله ـ تعالى ـ وفي هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم في صورة بشر: أنت لست ملكا؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها،

وحينئذ يقعون فى اللبس نفسه والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم، بسبب استنكارهم لكون الرسول بشرا.

وبهذين الجوابين الحكيمين، يكون القرآن الكريم، قد أبطل وهدم كل ما أشاعه هؤلاء الجاهلون المتعنتون، من إشاعات كاذبة، مؤداها - فى زعمهم - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو كان صادقا فى رسالته، لكان معه ملك يمشى معه، ويدافع عنه، ويشاهدونه بأعينهم.

-٣-

وشبيه بهاتين الآيتين الكريمتين، فى تصوير تعنت المشركين، وفى حكاية مطالبهم المتعنتة، وفى إشاعة ذلك بين الناس لإقناعهم بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لو كان على حق لأجابهم إلى مطالبهم.

شبيه بذلك قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

ففى هذه الآيات الكريمة نرى هؤلاء الزعماء من مشركى قريش، يذيعون بين عامة الناس، أنهم على استعداد للإيمان بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - متى نفذ لهم مطالبهم التى من بينها: أن يفجر لهم فى طرقات مكة بئرا جارية، وأن تكون له - صلى الله عليه وسلم - حديقة فيها أنواع النخيل والأعناب، والأنهار تجرى فى وسطها بغزارة، أو أن يأمر - صلى الله عليه وسلم - السماء بأن تسقط عليهم قطعا من العذاب، أو أن يأتى لهم بالله - تعالى - ومعه الملائكة لكى يشهدوا بأنه - صلى الله عليه وسلم - رسول من عند خالقه، وأن يشاهدوا ذلك بأبصارهم، أو أن يكون له - صلى الله عليه وسلم - بيت من الذهب، أو أن يصعد أمامهم إلى

السماء، ولن يصدقوه فى صعوده، حتى يأتيهم عند عودته من السماء، ومعه كتاب موثق من الله - تعالى - يقرءون فيه أنه رسول من عند الله - تعالى - .

وهنا يأمر الله - تعالى - النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على هؤلاء الجهلاء المتعنتين بقوله: سبحان ربى!! هل أنا إلا عبد من عباده مبلغ لرسالته؟ فكيف أقدر على فعل ما طلبتموه مما لا يقدر عليه سوى الخالق - عز وجل - ؟!

- ٤ -

وفى سورة «الفرقان» آيات كريمة، وضحت أن المشركين، قد أشاعوا بين البسطاء من أهل مكة، أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لو كان رسولا من عند الله حقا، لما كان على هذه الهيئة التى يُرَى عليها، بأن يأكل الطعام، ويمشى فى الأسواق، فالرسول - فى زعمهم - لا يكون على هذه الحالة.

وقد حكى القرآن هذه الإشاعات الباطلة، ورد عليها بما يدحضها، فقال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾.

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيات، أن جماعة من قريش قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم -: إن كنت تريد بما جئت به مالا، جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا، وإن كنت تريد ملكا جعلناك ملكا علينا.

فقال - صلى الله عليه وسلم -: «ما أريد شيئًا مما تقولون، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه علىّ أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم».

فقالوا: فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جنّانا وقصورا.

فقال لهم - صلى الله عليه وسلم - : «ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا» فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات.

-٥-

والمعنى: وقال زعماء الشرك للنبى - صلى الله عليه وسلم - على سبيل السخرية والتهكم بالنبى - صلى الله عليه وسلم -: يا محمد، كيف تزعم أنك رسول من عند الله، ونحن نراك بأعيننا تأكل الطعام كما نأكل، وتمشى فى الأسواق طلبا للرزق كما يفعل سائر الناس، هلا - لو كنت رسولا حقا - أن يكون معك ملك من الملائكة، يعضدك ويساعدك ويشهد لك بالرسالة، وينذر من يخالفك بسوء المصير؟ فإذا لم يكن معك ملك، فلا أقل من أن يكون عندك مال عظيم، يغنيك عن التردد فى الأسواق التماسا للرزق، أو أن تكون لك حديقة مليئة بالثمار، تأكل من خيرها ومن فواكهها؟!

ثم أضافوا إلى هذا الكلام الذى يقصدون منه الاستخفاف به - صلى الله عليه وسلم - كلاما آخر أشد فى القبح والسفاهة من هذا الكلام، حيث أشاعوا بين الناس، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - رجل قد أصيب بمرض فى عقله، قد أثر فى حياته وفى تصرفاته!!

-٦-

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يفضحهم على رءوس الأشهاد، وبما يسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن سفاهاتهم، وبما يجعل كل عاقل يحتقر ما تفوهوا به، فقال - تعالى -: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾.

أى: انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين، وتعجب من تعنتهم، ومن

ضحالة عقولهم، ومن سوء أقاويلهم؛ حيث وصفوك تارة بالسحر، وتارة بالجنون، وتارة بالشعر، وتارة بالكهانة، وتارة بأنك تأكل الطعام، وتمشى بالأسواق. . وهم فى كل ما وصفوك به، وما أشاعوه عنك من إشاعات كاذبة، قد تنكبوا الطريق المستقيم، وبقوا متحيرين فى باطلهم، دون أن يستطيعوا الوصول إلى الطريق الحق، بسبب انتكاس قلوبهم، وإصرارهم على العناد والحسد.

فالآية الكريمة تعجيب من جهالتهم، وحكم عليهم بالخيبة والخسران، وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه فى شأنه، وتثبيت لأتباعه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

-٧-

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإلى هذا التكريم، تكريما آخر، حيث قال - تعالى -: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾.

أى: جل شأن الله - عز وجل - وتكاثرت خيراته، فهو - سبحانه - الذى - إن شاء - جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم - خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين، بأن يهبك حدائق عظيمة تجرى من تحتها الأنهار، ويمنحك قصورا فخمة ضخمة.

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك؛ لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم، ساق الشائعات الكاذبة كما نطق بها زعماء الشرك، ضد النبى - صلى الله عليه وسلم - ليُكرِّهُوا الناس فيه وفى دعوته، ثم كرَّ عليها بما يزهقها ويبطلها، وبما يسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن مكرهم، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم.

جانب خامس مما أشاعه أعداء الحق
عن شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ ١ ـ

عندما يستحوذ الشيطان على إنسان، ويستولى الحسد والعناد على العقول والوجدان، تكثر الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، ويسترسل أصحابها فى بثها ونشرها دون حياء أو خجل، ودون تدبر أو تفكر حتى ولو كانت الإشاعة تحمل كذبها وفجورها.

ولقد قص علينا القرآن الكريم، أن مشركى قريش أشاعوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه ساحر، وأنه مجنون، وأنه شاعر، وأنه لو كان نبيا حقا لكان معه ملك من الملائكة يمشى بجواره، ويشهد بصدقه، وأنه لو كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا صدقا، لأتى بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء السابقون.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (ص: ٤).

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم: ١ ـ ٢).

وقال ـ عز وجل ـ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء: ٥).

وقد رد القرآن الكريم على هذه الأراجيف بما يزهقها، ولكن الجاهلين المعاندين الحاقدين، لا يكفون عن كذبهم، مهما عم قبحه، وانكشف فجوره.

-٢-

إن مشركي قريش لم يكتفوا بما أشاعوه من أكاذيب عن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكي يصرفوا الناس عنه وعن دعوته، ولكي يشككوهم في رسالته - صلى الله عليه وسلم - وإنما أضافوا إلى كل ذلك مزاعم أخرى منها: إشاعتهم أنه - صلى الله عليه وسلم - ليس أهلا للنبوة والرسالة؛ لأنه إنسان فقير لا يملك الكثير من الأموال، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل رسولا، لاختاره من ذوى المال والجاه والسلطان.

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يسجل أقوالهم، ثم يرد عليها بما يبطلها فيقول: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣١، ٣٢).

ومرادهم بالقريتين: مكة أو الطائف. ويقصدون بالعظم: كثرة المال والجاه والسلطان، كما كان الحال بالنسبة للوليد بن المغيرة بمكة، وبالنسبة لعروة بن مسعود فى الطائف.

والمعنى: وقال هؤلاء المشركون - على سبيل العناد والحسد والاستخفاف بشخصية النبى - صلى الله عليه وسلم - هلا أنزل هذا القرآن الذى يقرؤه علينا محمد - صلى الله عليه وسلم - على رجل عظيم فى ماله وسلطانه، ويكون من إحدى هاتين القريتين، وهما مكة أو الطائف.

فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم، استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى وإن كان فى القمة من الشرف والسمو بين قومه، إلا أنه لم يكن أكثرهم مالا وسلطانا، وهم - لجهلهم وغرورهم - يريدون أن تكون النبوة فى زعيم من زعمائهم، أو رئيس من رؤسائهم. . .

وهذا منهم - كما يقول الإمام الآلوسى - «لجهلهم بأن رتبة الرسالة، إنما تستدعى عظيم النفس، بالتخلى عن الرذائل الدنية، والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية».

-٣-

وقد وبخهم الله - تعالى - على جهلهم وتكبرهم هذا بقوله - سبحانه - : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ؟ !

والاستفهام هنا : للإنكار والتهكم بهم ، والتعجب من تفكيرهم .

والمراد بالرحمة : ما يشمل النبوة ، وما أنزله الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - من وحى ، وما منحه إياه من خلق كريم ، ومن خير عميم .

والمعنى : كيف بلغ الجهل والغباء بهؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة؟ إنهم ليس بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك ، وليس بيدهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاءوا وليختاروا لها من أرادوا ، وما دام الأمر كذلك ، فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - ؟ !

-٤-

ثم بين سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته وحكمته فقال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ .

أى : نحن الذين بقدرتنا وحكمتنا ، قسمنا بين الناس أرزاقهم فى هذه الدنيا ، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم ، ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات فى الدنيا ، فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا مخدوم وذاك خادم ، وهذا قوى وذاك ضعيف . .

وقد فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويعاون بعضهم بعضا فى مصالحهم ، وبذلك تنتظم الحياة ، وينهض العمران ، ويعم الخير بين الناس ، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله - تعالى - له من رزق واستعداد ، ولو أنا تركنا أمر تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا ولتقاتلوا ، ولعم الخراب فى الأرض ؛ لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، لأن الحرص والطمع من طبيعته . وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمور دنياهم ، فكيف أباحوا لأنفسهم التحكم فى

منصب النبوة، وهو بلا شك أعلى شأنا، وأبعد شأوا، وأسمى منزلة من كل منصب دنيوى.

وقوله - تعالى - : ﴿سُخْرِيًّا﴾ - بضم السين - من التسخير، بمعنى تسخير بعضهم لبعض، وخدمة بعضهم لبعض، وعمل بعضهم لبعض، فالغنى - مثلا - يقدم المال لغيره، نظير ما يقدمه له ذلك الغير من عمل معين، وبذلك تنتظم أمور الحياة، وتسير فى طريقها الذى رسمه - سبحانه - لها.

وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدخل السرور على قلب نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وبما يزيده ثباتا على ثباته، فقال - تعالى - : ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أى: ورحمة ربك - أيها الرسول الكريم - المتمثلة فى إعطائك النبوة والرسالة التى جمعت كل ألوان السعادة والهداية، وهى أفضل مما يجمعون من حطام الدنيا وشهواتها. ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها زعماء الشرك، للتهوين من شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - زعمهم أنه - صلى الله عليه وسلم - عما قريب ستنتهى حياته، وسينسى الناس سيرته ودعوته، وسينقطع خبره، وقصدهم من وراء هذا الكلام السيئ الخبيث، إبعاد الناس عن الاستماع إليه - صلى الله عليه وسلم -.

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق زعمهم هذا بأسلوبه الحكيم، ويرد على أولئك الماكرين بما يبطل مكرهم، وبما يعلى من قدر النبى صلى الله عليه وسلم، وبما يزيده هو وأصحابه ثباتا على ثباتهم، وإيمانا على إيمانهم فيقول - سبحانه - : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

ولفظ «الكوثر» فى اللغة: يطلق على الشىء المبالغ فى الكثرة حدا كبيرا، والعرب تسمى كل شىء كثر عدده، وعظم شأنه: كوثرا. وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر: بم رجع ابنك؟ فقالت: رجع بكوثر.

أى: بشىء كثير من الخيرات.

والمشهور أن المراد بالكوثر هنا : نهر فى الجنة منحه الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء فى صحيح البخارى .

والمعنى : إنا أعطيناك بفضلنا وكرمنا ـ أيها الرسول الكريم ـ الكوثر ، أى : الخير الكثير الذى من جملته هذا النهر العظيم فى الجنة ، فأبشر بذلك أنت وأتباعك ، ولا تلتفت لما أشاعه أعداؤك عنك ، وما دمنا قد أعطيناك هذه النعم الجزيلة ، فداوم على شكرك لنا ، وعلى أداء الصلاة بخشوع وإخلاص فى وقتها ، وعلى تقديم العون والمساعدة للمحتاجين . .

ثم بشره ـ سبحانه ـ ببشارة أخرى فقال : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ . والشانئ : هو الكاره لغيره ، والمعادى له ، والحاقد عليه . والأبتر فى الأصل : هو الحيوان المقطوع الذيل . والمراد به هنا : الإنسان الذى انقطع خبره ، وزال أثره .

والمعنى : إن من يبغضك ويكرهك ويشيع عنك الإشاعات الكاذبة ـ أيها الرسول الكريم ـ ، هو الإنسان الذى انقطع عنه كل خير ، وحُرم من كل أثر طيب ، ونسيه الناس لسوء قوله وفعله .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «كان العاص بن وائل ، إذا ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : اتركوه فإنه رجل أبتر لا ذرية له ، فإذا هلك انقطع أثره وخبره ، فأنزل الله ـ تعالى هذه السورة . . » .

ثم قال ـ رحمه الله ـ : «وحاشا وكلا أن ينقطع أثره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقد أبقى الله ـ تعالى ـ ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رءوس العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والميعاد ، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم التناد» .

ـ ٦ ـ

ومن الإشاعات الكاذبة التى نشرها أكابر المشركين فى أتباعهم لكى يصدوهم عن دعوة الإسلام : دعواهم أنهم لو اتبعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتجمع

عليهم العرب من كل جانب وحاربوهم وقتلوهم، ولا يستطيع محمد - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه أن يدافعوا عنهم؛ لأنهم لا قدرة لهم على ذلك لضعفهم أمام قوة القبائل المحيطة بمكة.

وقد حكى القرآن أقوالهم هذه ورد عليها بما يدحضها فقال: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص: ٥٧).

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية، أن نفرا من زعماء المشركين أتوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له: «يا محمد، إننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب، أن يتخطفونا من أرضنا . . .».

والتخطف: الانتزاع للشىء بسرعة. يقال: فلان اختطفه الموت، إذا أخذه بغته دون إمهال.

والمعنى: وقال المشركون للنبى - صلى الله عليه وسلم - إننا لا نستطيع أن نؤمن بك؛ لأننا لو آمنا بك لعادانا العرب، ولأنزلوا بنا الهلاك، وأنت أضعف من أن تدافع عنا لفقرك وعجزك . .

وقد رد الله - تعالى - على مزاعمهم هذه بقوله: كيف يتفوهون بهذا الكلام الساقط، مع أننا قد جعلنا لهم حرما ذا أمان وهو البيت الحرام، الذى يعيشون من حوله فى اطمئنان، وتأتيهم خيرات الأرض بسببه من كل مكان، وقد فعلنا ذلك معهم وهم مشركون، فكيف نعرضهم للخطف وهم مؤمنون؟!

ورحم الله صاحب الكشاف، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ما ملخصه: «وكانت العرب فى الجاهلية حول أهل مكة، يتناحرون، وأهل مكة آمنون مطمئنون فى حرمهم، وبحرمة البيت هم ساكنون بواد غير ذى زرع، والثمرات والأرزاق تأتى إليهم من كل مكان، فإذا أعطاهم الله ما أعطاهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم عبدة أصنام، فكيف يستقيم أن يُعرّضهم للتخطف والخوف، ويسلبهم الأمن، إذا ضموا إلى حرمة البيت، حرمة الإسلام».

-٧-

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا ﴾ للإشعار بكثرة الخيرات والثمرات، التى تأتى إلى أهل مكة من كل جانب من جوانب الأرض، ومن كل نوع من أنواع ثمارها.

وقد ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لذم هذه الكثرة المعاندة الجاهلة. أى: ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون هذه الحقيقة، ويجهلون أن اتباعهم للدين الحق، يؤدى إلى سعادتهم فى حياتهم وبعد مماتهم.

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾؟! (العنكبوت: ٦٧)

وهكذا يسوق القرآن الكريم ألوانا من الإشاعات الكاذبة التى أشاعها الجاهلون والحاقدون والمغرورون حول شخصية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم يرد عليها بما يبطلها ويزهقها، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، ويزيد المعاندين والجاحدين رجسا على رجسهم.

جانب سادس مما أشاعه أعداء الحق عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ ١ ـ

الإشاعات الكاذبة وإن كانت فى كل زمان ومكان تتفق فى قبحها، وفى سوء مقاصد أصحابها، وفى خبث طويتهم، وفى تعمدهم إلحاق الأذى والسوء بغيرهم . . . إلا أنها تختلف فى أسلوبها وفى وسائلها من زمان إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى.

ومن الأدلة على ذلك: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضى بمكة المكرمة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، تعرض خلالها لألوان من الإشاعات الكاذبة، ومن التهم الباطلة، فقد وصفه زعماء الشرك بمكة بأنه ساحر، وبأنه مجنون، وبأنه شاعر . . . إلى غير ذلك من الأراجيف التى كان الهدف من ورائها الإساءة إلى شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكذيبه فى رسالته، وصرف الناس عن الإيمان بما يدعو إليه من إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده، ومن التحلى بمكارم الأخلاق.

فلما هاجر ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة المنورة، وأسس الدولة الإسلامية بها، تعرض لإشاعات كاذبة أخرى، من طائفتين من سكان المدينة المنورة.

أما الطائفة الأولى فهى طائفة اليهود، وأما الطائفة الثانية فهى طائفة المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإسلام ويخفون الكفر . .

وكان لكل طائفة منهم أسلوبها ووسائلها فى الإساءة إلى شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى إشاعة الأكاذيب عنه، وفى التشكيك فى صدق دعوته، حتى ينصرف الناس عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وقد قص علينا القرآن الكريم فى كثير من آياته، نماذج لتلك الأراجيف الباطلة التى روجها عدد كبير من اليهود لمحاربة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ولإظهاره بأنه ليس هو الرسول الذى أرسله الله - تعالى - بالهدى ودين الحق.

ومن ذلك إنكارهم لنبوته التى بشرهم بها عيسى - عليه السلام - فى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (سورة الصف : ٦).

والمعنى : واذكر - يا محمد لقومك - وقت أن قال عيسى - عليه السلام - لمن أرسل إليهم : يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم، وإنى مؤيد ومصدق للتوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - من قبلى، وإنى أبشركم وأشهد بصدق رسول يأتى من بعدى اسمه «أحمد».

قال الإمام الآلوسى - رحمه الله - : «وهذا الاسم الجليل «أحمد» اسم لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ففى الصحيحين عن جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا العاقب».

وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة، وثابتة أيضا ثبوتا قطعيا بآيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ... ﴾ (سورة الأعراف : ١٥٧).

ثم بينت الآية الكريمة موقف بنى إسرائيل الجحودى من كل نبى فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أى : فحين جاء عيسى - عليه السلام - بالآيات الواضحات لمن أرسل إليهم من بنى إسرائيل، وجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - لمن أرسل إليهم من هؤلاء القوم، ما كان من الجميع إلا أن قالوا لمن دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده : هذا الذى جئتنا به ما هو إلا سحر واضح، وكذب فاضح.

-٣-

وشبيه بهذه الآية الكريمة فى إنكار اليهود لنبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى حضهم لغيرهم على عدم الإيمان به، وفى إشاعتهم للأكاذيب عنه، قوله - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩).

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن عاصم بن عمرو ابن قتادة الأنصارى، عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، أنا كنا نسمع من اليهود حين كنا أهل شرك وكانوا هم أهل كتاب، وعندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم . فلما بعث الله - تعالى - رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - أجبناه حين دعانا إلى الإسلام، فآمنا به، وكفروا هم به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية.

والمعنى : وحين جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى اليهود ومعه القرآن المؤيد للتوراة، جحدوا نبوته، وكذبوا رسالته - صلى الله عليه وسلم - مع أنهم كانوا قبل بعثته - صلى الله عليه وسلم - يستنصرون به على أعدائهم من أهل المدينة، ويقولون لهم : قرب مبعث نبى آخر الزمان، وسنتبعه ونقاتلكم معه، فلما جاءهم الرسول الذى عرفوا صفاته وصدقه كفروا به وكذبوه، فلعنة الله على كل من كفر بنبى الله وبرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وبالكتب السماوية التى أنزلها الله - تعالى - على رسله.

- ٤ -

ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها بعض زعماء اليهود عن النبى - صلى الله عليه وسلم - زعمهم أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يأت بالمعجزات التى تؤيده والتى أخبرت عنها كتبهم، وقصدهم من ذلك التشكيك فى صدقه، وفى نبوته، وقد ذكر القرآن ذلك عنهم فى آيات منها قوله - سبحانه -: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٨٣).

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية، أن جماعة من اليهود منهم كعب ابن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء، وحيى بن أخطب، جاءوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له: يا محمد إنَ كنت نبيا حقا، فأتنا بصدقة وتنزل النار من السماء لتأكلها أمام أعيننا، فإذا فعلت ذلك آمنا بك؛ لأن الله عهد إلينا بذلك فى كتبنا!!

ومقصدهم من وراء هذا القول: أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظين على عهود الله، وأنهم ما تركوا الإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - إلا أنه لم يأت بالمعجزات التى تؤيده، وأن على غيرهم من الناس أن ينهجوا نهجهم فى تكذيب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته...

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال: ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

أى: قل لهم - أيها الرسول الكريم -: قد جاء إلى آبائكم رسل كثير عددهم من قبلى بالمعجزات الواضحة، كما جاءوا إليهم بالقربات وبالصدقات التى يتقرب بها إلى الله - تعالى - والتى نزلت نار من السماء فأكلتها، ومع ذلك فإن آباءكم الذين أنتم تسيرون على طريقتهم وتتبعون فعلهم، قد قتلوا هؤلاء الأنبياء، فلماذا تقلدون آباءكم فى ارتكاب المنكرات، إن كنتم صادقين فى دعواكم اتباع الحق؟!

فالآية الكريمة ترد على هؤلاء اليهود الذين ساروا على طريقة آبائهم فى الإثم والعدوان بأبلغ رد؛ حيث وضحت أن دعواهم أن إيمانهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - متوقف على مجيئه بالقربان الذى تأكله النار، دعوى كاذبة؛ لأن من جاءهم وجاء على آبائهم بذلك كان جزاؤه القتل منهم.

- ٥ -

ومن أشد الإشاعات الكاذبة خبثا ومكرا، ما فعله بعض اليهود لتكذيب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته، وللإساءة إلى شخصه، أنهم تواصوا فيما بينهم أنهم يتظاهرون بالإيمان فى أول النهار، فإذا ما جاء آخر النهار رجعوا إلى دينهم، فإذا ما سألهم سائل لماذا فعلتم ذلك؟ قالوا: إنهم بعد دخولهم فى الإسلام وجدوه دينا باطلا، وتأكدوا من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس صادقا فى دعوته، وأنه ليس هو الرسول الذى أخبرت عنه كتبهم.

واستمع إلى القرآن بتدبر وتأمل وهو يسوق مكرهم بأسلوبه الحكيم فيقول: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ... ﴾ (آل عمران: ٧٢).

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: أن جماعة من أحبار اليهود قالوا لغيرهم: «أعطوهم - أى: المسلمين - الرضا بدينهم فى أول النهار، وارجعوا عنه فى آخر النهار، فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه فى دينهم، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم».

والمعنى: وقال جماعة من اليهود لأتباعهم: أظهروا الإسلام فى أول النهار، وعودوا إلى اليهودية فى آخر النهار، أملا فى أن ينخدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين، فيشكوا فى دينهم وفى صدق رسولهم - صلى الله عليه وسلم -، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام، وبعد أن تقولوا لهم: إننا بعد بحثنا فى هذا الدين وجدناه دينا باطلا، وأن الذى جاء به ليس رسولا من عند الله - تعالى - !!

ورحم الله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية:

«وهذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام، مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فهم هذا «هرقل ملك الروم»، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى -صلى الله عليه وسلم- أن قال له: «هل يرتد أحد من أتباع محمد كراهة لدينه بعد أن يدخل فيه»؟ فقال أبوسفيان: «لا».

وقد أرادت هذه الطائفة من اليهود أن تخدع الناس من هذه الناحية ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء الأحبار بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب».

والخلاصة أن هذه الطريقة التى سلكها بعض اليهود فى العهد النبوى، لصرف بعض المسلمين عن دينهم، ولتكذيب النبى -صلى الله عليه وسلم- تعد من أخبث الإشاعات الكاذبة، وأقبح الأراجيف الباطلة، وقد أمر الله -تعالى- رسوله محمدا -صلى الله عليه وسلم- أن يرد عليهم بما يفضحهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (آل عمران: ٧٣، ٧٤).

-٦-

ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها بعض أحبار اليهود عن النبى -صلى الله عليه وسلم-: زعمهم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعوهم إلى عبادته من دون الله، فقد ورد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن أحد أحبار اليهود قال للنبى -صلى الله عليه وسلم-: أتريد منا يا محمد أن نعبدك؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن آمر بعبادة غير الله، ما بذلك أمرنى ولا بذلك بعثنى»، وأنزل -سبحانه- قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩).

والمعنى: لا يصح ولا يستقيم عقلا لبشر أعطاه الله ـ تعالى ـ الكتاب الناطق بالحق، وأعطاه العلم النافع والعمل به، وأعطاه النبوة التى هى هبة منه ـ سبحانه ـ لمن يصطفى من خلقه، لا يصح لهذا الإنسان أن يقول للناس، اعبدونى من دون الله، ولكن الذى يجب عليه أن يقول لهم: كونوا ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ أى: مقبلين على إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده بنشاط وجد و إخلاص، بسبب ما أعطاكم خالقكم من عقل سليم، ومن علم نافع أخذتموه عن الكتب السماوية التى درستموها عن علمائكم، وعلمتموها لغيركم.

وهكذا نرى القرآن الكريم قد ساق لنا ألونا من الشائعات والأراجيف التى أشاعها بعض اليهود عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقصد تكذيبه فى دعوته، وصرف الناس عن تصديقه، وقد رد القرآن عليها بما يزهقها، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، ولله عاقبة الأمور.

جانب سابع مما أشاعه المنافقون عن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم -

- ١ -

إذا كانت الإشاعات الكاذبة تتفاوت فى آثارها السيئة، وفى رذائلها المتنوعة، وفى جرائمها المتعددة، فإن ما يصدر عن المنافقين من أرجيف باطلة ضرره أشد، وقبحه أعظم، وأثره السيِّئ فى نفوس الأفراد والجماعات أخطر وأكبر . . .

وذلك لأن النفاق فى ذاته انسلاخ عن الفطرة الإنسانية السوية، ومعصية تجعل صاحبها محل غضب الله - تعالى - ومقته.

قال - تعالى - : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٠، ٦١).

والإنسان المنافق هو الذى يقول بلسانه ما ليس فى قلبه، ويظهر خلاف ما يبطن، ويبدى نقيض ما يضمر، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . . . ﴾ (المنافقون: ١)

أى: إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - يا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، قالوا لك على سبيل الكذب والخداع والمداهنة: - نشهد أنك رسول من عند الله وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك، والله - تعالى - يعلم أنك لرسوله حقا سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا، فأنت - أيها الرسول الكريم - لست فى حاجة إلى شهادتهم التى

تخالف بواطنهم، وأخبرك أن الله ـ تعالى ـ يشهد بأن هؤلاء المنافقين كاذبون؛ لأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

-٢-

والنفاق يظهر حيث تكون القوة والغلبة؛ لذا لم يظهر النفاق بين مشركى قريش، لأن المؤمنين فى مكة كانوا قلة ضعيفة بالنسبة للمشركين، فلما هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة المنورة، وأسس دولته القوية الفتية التى انتصرت على مشركى مكة، بدأ النفاق يظهر بين بعض سكان المدينة، بأن يظهروا الإسلام ويخفوا الكفر، إما لخوفهم من المؤمنين الصادقين، وإما لكى يأخذوا نصيبهم من الغنائم، وإما لغير ذلك من الأسباب التى تدل على خبث نفوسهم، وجبن قلوبهم، وقبح سلوكهم، وهوان شخصيتهم، وقد وصفهم الله ـ تعالى ـ فى كتابه بأخس الصفات، وحكم عليهم بأنهم فى الطبقة السفلى من النار..

قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ...﴾ (النساء: ١٤٢، ١٤٣).

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥).

-٣-

ولقد قص علينا القرآن الكريم كثيرا من الشائعات الكاذبة، والأراجيف الفاسدة، التى كان المنافقون يحرصون على إذاعتها ونشرها بقصد الإساءة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى محاربة دعوته، بأساليب وبوسائل فيها ما فيها من الخداع وسوء النية، وكراهية الإسلام وأتباعه.

ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها المنافقون للإساءة إلى النبى ـ صلى الله عليه

وسلم ـ : زعمهم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ من الغنائم ما ليس من حقه، وقد برأ الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه التهمة الباطلة فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: الآية ١٦١).

وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء فى سنن أبى داود والترمذى عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية فى قطيفة حمراء فُقدت يوم غزوة بدر، فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخذها، وأكثروا القول فى ذلك».

وفى رواية أن المنافقين اتهموا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشىء افتقدوه، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية.

ولفظ «يَغُل» من الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها.

والمعنى: ما صح ولا استقام لنبى من الأنبياء ـ فضلا عن أفضلهم ـ أن يخون فى المغنم؛ لأن الخيانة تتنافى مع مقام النبوة الذى هو أشرف المقامات، ومن يرتكب شيئا من ذلك، يأت يوم القيامة بما خانه حاملا إياه على كتفيه، ليكون فضيحة له فى هذا اليوم الهائل الشديد، الذى تعطى كل نفس حقوقها دون ظلم أو محاباة، لأن الله ـ تعالى ـ لا يظلم أحد من خلقه.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية: «وهذا تنزيه له ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسمة الغنيمة وغير ذلك».

ـ ٤ ـ

ومن الشائعات الكاذبة التى كان المنافقون ينشرونها للإساءة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دعواهم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعدل فى قسمته، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (التوبة: ٥٨).

قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية : «اعلم أن المقصود منها : شرح نوع آخر من قبائح المنافقين وفضائحهم ، وهو طعنهم فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون : إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبون إليه - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يراعى العدل» .

ومن الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ، ما جاء عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : لما قسم النبى - صلى الله عليه وسلم - غنائم غزوة حنين ، سمعت رجلا من المنافقين يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! ! فأتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكرت له ذلك فقال : «رحم الله نبيه موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» .

ولفظ «يَلْمِزُكَ» معناه : يعيبك ويطعن عليك ولا يرضى بقولك أو فعلك .

أى : ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك ويطعن عليك - أيها الرسول الكريم - فى قسمة الغنائم ، فإن أعطيتهم منها رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلما ، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك حتى ولو كان عدم عطائهم هو العدل بعينه ، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضبا للعدل ، وإنما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ، ومن أجل الإساءة إلى شخصك الكريم ، وإلى دين الإسلام الذى ارتضاه الله - تعالى - لعباده دينا .

- ٥ -

كذلك من الأراجيف الباطلة التى كان المنافقون ينشطون فى نشرها ، للتهوين من شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يقبل الناس على دعوته ، قولهم : إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رجل أُذُن ، أى : رجل يصدق كل ما يقال له سواء أكان ما يقال له من باب الصدق أم من باب الكذب .

وقد فضحهم الله - تعالى - على رءوس الأشهاد ، وأنزل فيهم قوله - سبحانه - : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة : ٦١) .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية ، أن جماعة من المنافقين ، جلسوا وقالوا كلاما سيئا فى حق النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فقال رجل منهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمدا - صلى الله عليه وسلم - ما تقولونه !! فقال أحدهم : بل نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا ، فإنه رجل أُذُن !!

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - : «الأُذُن : هو الرجل الذى يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد . سمى بالجارحة التى هى آلة السماع ، كأن جملته أذن سامعه ، كما سمى الجاسوس عين» .

-٦-

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين قوم يؤذون النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فيقولن عنه إنه كثير السماع والتصديق لكل ما يقال له دون تمييز بين الحق والباطل .

وقوله - سبحانه - : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ رد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويكبت أنفسهم .

أى : قل لهؤلاء المنافقين - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ والتبكيت : سلمنا - كما تزعمون - أنى كثير السماع والتصديق لما يقال ، لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير دون تمييز بينهما ، وإنما هى للخير ولما وافق شرع الله - تعالى - .

وهذه الجملة الكريمة من أسمى الأساليب وأحكمها فى الرد على المرجفين والمروجين للشائعات الباطلة ؛ لأنه - سبحانه - صدقهم فى كونه - صلى الله عليه وسلم - أذنا ، وذلك بما هو مدح له - صلى الله عليه وسلم - ، حيث وصفه بأنه أذن خير لا شر ، وحق لا باطل . . .

قال صاحب الانتصاف عند تعليقه على هذه الجملة الكريمة : «لا شيء أبلغ فى الرد على المنافقين من هذا الرد ؛ لأنه فى الأول إطماع لهم بالموافقة ، ثم كر على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم فى تنقصه باليأس منه ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه» .

-٧-

وقوله - تعالى - : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ تفسير وتوضيح لكونه - صلى الله عليه وسلم - أذن خير لهم لا أذن شر عليهم.

أى : أن من مظاهر كونه - صلى الله عليه وسلم - أذن خير، أنه يؤمن بالله إيمانا حقا، ويؤمن للمؤمنين بأن يصدقهم فيما يقولونه لأنهم أصحابه الذين آمنوا به واتبعوه، فهم أهل للتصديق والقبول، دون غيرهم من المنافقين، وأنه - صلى الله عليه وسلم - فضلا عن كل ذلك، هو رحمة للذين صدقوا فى إيمانهم، وأخلصوا لله - تعالى - فى عبادتهم، وتركوا النفاق والرياء، ورحمة كذلك للذين أظهروا الإسلام منكم - أيها المنافقون - حيث إنه - صلى الله عليه وسلم - عاملهم حسب ظواهرهم، دون أن يكشف أسرارهم، أو يهتك أستارهم . . .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : والذين يؤذون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنشر الإشاعات الكاذبة عنه، أو بأى قول أو فعل يسىء إليه - صلى الله عليه وسلم - لهم عذاب أليم؛ لأنهم بإيذائه يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين.

-٨-

ومن أقبح وأخبث ما تفتقت عنه أفكار المنافقين للاستهزاء بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وللاستخفاف بأقواله، أنهم كانوا يجلسون فى مجلسه ومعهم المؤمنون، فإذا ما انتهى المجلس وخرجوا قالوا للمؤمنين : ماذا كان يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -؟ ويقصدون بذلك أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقل شيئا يستحق السماع، وبالتالى فعلى الناس أن ينصرفوا عنه وعن دعوته، قال - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا . . . ﴾ (محمد : ١٦).

والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين قوم بلغ بهم المكر واللؤم، أنهم يجلسون فى مجلسك مع المؤمنين الصادقين، ويستمعون إليك بآذانهم لا بقلوبهم، فإذا ما

خرجوا من مجلسك الذي كانوا يستمعون إليك فيه، قالوا على سبيل التهكم والاستهزاء للذين أوتوا العلم من أصحابك الذين فهموا كلامك وعملوا به، ماذا كان يقول صاحبكم - صلى الله عليه وسلم - قبل أن نفارق مجلسه؟!

ومقصدهم من ذلك أن يشيعوا بين الناس أن مجالسته - صلى الله عليه وسلم - لا خير فيها ولا نفع من ورائها؛ لذا ذمهم الله - تعالى - بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (محمد: ١٦).

أي: أولئك المنافقون الذين قالوا هذا القول القبيح، هم الذين أعمى الله قلوبهم بسبب مكرهم وفجورهم، وهم الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم، فصاروا لا يعقلون حقا، ولا يفقهون حديثا نافعا.

-٩-

هذا جانب من الشائعات الكاذبة، والوسائل الخبيثة، التى استعملها المنافقون فى العهد النبوى، للإساءة إلى شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم -؛ لكى يشككوا الناس فى صدق رسالته، وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يفضحهم ويخرس ألسنتهم.

جانب مما أشاعه المنافقون عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ

ـ ١ ـ

لم يكتف المنافقون بما أشاعوه من أراجيف عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن قالوا عنه ـ كما سبق أن بينا ـ أنه يأخذ من الغنائم ما ليس من حقه، وأنه يقسمها بطريقة ليست عادلة، وأنه رجل «أذن» أى: يصدق كل ما يقال له، سواء أكان ما يقال له من باب الحق أم من باب الباطل، وأنه يقول كلاما لا فائدة منه.

لم يكتفوا بكل ذلك: بل لجئوا إلى أسلوب خبيث خسيس، تأباه النفوس الشريفة، ألا وهو الطعن فى عرض السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إحدى أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ومقصدهم من ذلك: الطعن فى نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكأنهم ـ لسوء نواياهم، وخبث طواياهم ـ يقولون: لو كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا حقا لما تزوج بامرأة هذا شأنها.

ـ ٢ ـ

وقد سمى القرآن الكريم ما أشاعه المنافقون عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ بحديث الإفك، وقد ذكرت كتب السنة والسيرة تفاصيل هذا الحديث، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ـ وهى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة من الهجرة ـ فخرج سهمى، فخرجت معه،

وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه ـ أى : فأنا أحمل فى قبة تستر بالقماش وتوضع على ظهر البعير فأنا بداخلها ـ . . .

وبعد أن فرغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوته تلك ، وآذن بالرحيل ودنونا من المدينة ، فقمت لقضاء حاجة لى ، ثم عدت إلى مكان راحلتى ، فلمست صدرى ، فإذا عقد لى قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فاحتبسنى طلبه ، وأقبل الذين يرحلون بى فاحتملوا هودجى فوضعوه على بعيرى الذى كنت أركبه ، وهم يحسبون أنى فيه . . . وكنت جارية حديثة السن ، ثم ساروا . . .

فوجدت عقدى بعد أن سار الجيش ، ورجعت إلى مكانى فلم أجد أحدا ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى ، وبينما أنا جالسة فغلبتنى عيناى فنمت . .

ـ ٣ ـ

وكان «صفوان بن المعطّل السُّلَمى» من وراء الجيش فأصبح عند مكانى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه ـ أى : بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ـ ثم أناخ راحلته فركبتها ، وسترت وجهى بجلبابى ، فوالله ما كلمنى كلمة ، وانطلق بى يقود بى راحلته حتى أتينا الجيش ، بعد ما نزلوا فى نحو الظهيرة ، فهلك فى شأنى من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى بن سلول ـ زعيم المنافقين ـ . .

ثم قالت ـ رضى الله عنها ـ : وقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهرا ـ أى : أصابنى المرض لمدة شهر ـ والناس يفيضون ـ أى : يشيعون ـ فى قول أصحاب الإفك ، وكان يريبنى فى وجعى أنى كنت لا أرى من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض . . .

ثم قلت له : ائذن لى يا رسول الله أن أذهب إلى أبوى ، وأنا حينئذ أريد أن أستيقن خبر حديث الإفك من جهتهما ، فأذن لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتيت أبوى فقلت لأمى : ما الذى يتحدث الناس به؟ فقالت يا بنيتى هونى على نفسك الشأن ، فقلت : سبحان الله ، وتحدث الناس بهذا؟ ! وبت تلك الليلة حتى أصبحت لا ينقطع لى دمع ولا أكتحل بنوم . . .

ثم قـام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن استشار فى أمرى ـ فقـال : «من يعذرنى ـ أى : ينصرنى ـ من رجل بلغنى أذاه فى أهلى؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا . . » .

فقام سعد بن معاذ فقال : يارسول الله أنا أعذرُك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج ، أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . . . . ! !

ثم قـالت ـ رضى الله عنهـا ـ : وبكيت ليلتين يومـا ، حتى ظننت أن البكاء فـالق كبدى ! ! وبينما أبواى يجلسان عندى ، إذ دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد مكث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، فتشهد ثم قال : «يا عائشة إن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله . . » .

فقالت : رضى الله عنهـا ـ : فلما قضى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقالته قلص دمعى ـ أى : انقطع من شدة الحزن ـ وقلت لأبواى : أجيبا عنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! ! فقالا : ما ندرى ما نقول ! ! فقلت : ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قـال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف : ١٨) .

ثم تحولت إلى فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله ، ولكن ما ظننت أن ينزل فى شأنى قرآن يتلى . . فوالله ما رام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلسه حتى نزل عليه الوحى ، فلما سرى عنه كان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : «يا عائشة ، احمدى الله فقد برأك الله» ، فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله ! ! فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ براءتى ، فى آيات من كتابه .

ـ ٤ ـ

والآيات القرآنية التى نزلت فى براءة السيدة عائشة مما أشاعه عنها المنافقون تبلغ ست عشرة آية من سورة «النور» .

وقد افتتحت هذه الآيات بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا

تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ .

والإفك : أشنع الكذب وأقبحه ، يقال : أفك فلان ، إذا افترى على غيره كذبا فى نهاية الفحش .

والعُصبة : الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، وسموا بذلك لأن كل واحد منهم يؤيد الآخر ويقويه .

أى : إن الذين قالوا ما قالوا من كذب قبيح ، وبهتان شنيع ، على السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، هم جماعة ينتسبون إليكم ـ أيها المسلمون ـ ، بعضهم قد استزلهم الشيطان ـ كمسْطَح بن أثاثه ـ ، وبعضهم يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ـ كزعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ـ .

وفى التعبير بقوله ـ تعالى ـ «عصبة» : إشعار بأنهم جماعة لها أهدافها الخبيثة ، التى تواطئوا على نشرها ، وتكاتفوا على إشاعتها بمكر وسوء نية .

ـ ٥ ـ

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ : تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأصحابه المؤمنين الصادقين عما أصابهم من حزن وكرب ، بسبب هذا الحديث البالغ نهاية دركات الكذب والقبح .

أى : لا تظنوا ـ أيها المؤمنون ـ أن حديث الإفك هذا هو شر لكم ، بل هو خير لكم ؛ لأنه كشف عمن هو قوى الإيمان ، ومن هو ضعيف الإيمان ، كما أنه فضح حقيقة المنافقين ، وأظهر ما يضمرونه من سوء ، للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأهل بيته وللمؤمنين ، كما أنكم ـ أيها المؤمنون ـ قد نلتم بسبب صبركم عليه ، وتكذيبكم له ، أرفع الدرجات عند الله ـ تعالى ـ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده لهؤلاء الخائضين فى حديث الإفك من عقاب فقال : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ .

أى: لكل واحد من هؤلاء الذين اشتركوا فى حديث الإفك وفى الترويج له، العقاب الأليم الذى يستحقه، بسبب ما وقع فيه من آثام، وما اقترفه من سيئات.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بيان لسوء عاقبة من تولى معظم إشاعة هذا الحديث الكاذب.

ولفظ «الكبر» ـ بكسر الكاف وضمها ـ مصدر لمعظم الشىء وأكثره.

أى: والذى تولى معظم الخوض فى هذا الحديث الكاذب، وحرض على إشاعته، له عذاب عظيم لا يقادر قدره من الله ـ تعالى ـ.

والمقصود بهذا الذى تولى كبره: عبد الله بن أبى بن سلول، رأس المنافقين وزعيمهم، فهو الذى قاد حملته، وقام بإشاعته.

روى أنه لما جاء «صفوان بن المعطل» يقود راحلته وعليها عائشة ـ رضى الله عنها ـ قال هذا الزعيم للمنافقين، لمن كانوا حوله من أتباعه: من هذه؟ قالوا له: إنها عائشة. فقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، إنها ما نجت منه وما نجا منها!! وكان ابن سلول يجمع أشباهه ويحدثهم بذلك. وقد جاء فى بعض الآثار أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقام عليه حد القذف، وقيل إنه لم يحد أصلا، لأنه لم يقر.

ـ٦ـ

ثم وجه ـ سبحانه ـ المؤمنين إلى الطريق الذى يجب عليهم أن يسلكوه فى مثل هذه الأحوال فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

و«لولا» هنا حرف تخصيص بمعنى «هلا». والمراد بأنفسهم فى الآية التى معنا: إخوانهم فى الدين والعقيدة.

والمعنى: هلا وقت أن سمعتم ـ أيها المؤمنون والمؤمنات ـ حديث الإفك هذا،

ظننتم «بأنفسكم» أى : بإخوانكم وبأخواتكم ظنا حسنا جميلا ، وقلتم : هذا الحديث الذى أذاعه المنافقون كذب شنيع ، وبهتان واضح لا يصدقه نقل أو عقل .

وفى التعبير عن إخوانهم وأخواتهم فى الدين بأنفسهم ، أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء الصادق بين المؤمنين ، حتى لكأن الذى يظن السوء بغيره ، إنما ظنه بنفسه ! !

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾(البقرة : ٨٥) أى : تقتلون إخوانكم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ولا تلمزوا أنفُسَكُمْ ﴾ (الحجرات : ١١) .

أى : ولا تستهزئوا بغيركم .

وقوله - عز وجل - ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ (النور : ٦١) .

أى : فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أهلها . . .

- ٧ -

ولقد فعل المؤمنون الصادقون ما دعت إليه هذه الآية الكريمة ، فهاهو ذا أبو أيوب - خالد بن زيد الأنصارى - فقد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أسمعت ما قاله بعض الناس فى شأن عائشة - رضى الله عنها - ؟ فقال لها : نعم سمعت وذلك هو الكذب . ثم قال لها : يا أم أيوب ، هل لو كنت مكان عائشة أكنت فاعلة ذلك؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعل ذلك ! ! فقال لها : فعائشة - رضى الله عنها - خير منك .

وفى رواية أن أبا أيوب قال لزوجته أم أيوب : ألا تسمعين ما يقال فى شأن صفوان وعائشة؟ فقالت له : هل لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سوءا؟ قال : لا .

فقالت له : وأنا لو كنت مكان عائشة ما خنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! ! وإن عائشة لخير منى ، وإن صفوان لخير منك .

وهكذا المؤمنون الأطهار الأخيار، يبنون أمورهم على حسن الظن بالناس.

ورحم الله صاحب الانتصاف، فقد علق على ما قالته أم أيوب لزوجها فقال: «ولقد ألهمت أم أيوب بنور الإيمان إلى هذا السر الذى انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان، ونزلت نفسها منزلة عائشة، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة، حتى أثبتتها لصفوان ولعائشة بالطريق الأولى».

-٨-

والحق أن حديث الإفك الذى أشاعه المنافقون عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - قد اهتزت له المدينة المنورة؛ لأنهم كانوا يقصدون من وراء نشر هذا الحديث المفترى، الإساءة إلى مقام النبى - صلى الله عليه وسلم - وإلى الطعن فى نبوته، وإلى الصديقة بنت الصديق، وإلى الإسلام والمسلمين بصفة عامة؛ لذا فصل القرآن الحديث عن هذا الحادث، ووجه المؤمنين - كما سنرى - إلى محاربة هذه الأراجيف الباطلة، والشائعات الخبيثة.

جانب آخر مما أشاعه المنافقون
عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ

ـ ١ ـ

مما لا خلاف عليه بين العقلاء : أن أشق شيء على نفوس الشرفاء ، أن يلصق الأشرار بهم التهم الباطلة ، وأن يشيعوا عنهم ما هم بريئون منه .

ولقد كانت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ تعبر عن كل نفس إنسانية طاهرة ، عندما بلغها حديث الإفك عنها ، فحزنت حزنا شديدا حكته بقولها ـ كما جاء فى صحيح البخارى ـ : «فبت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم . . وقد بكيت ليلتين ويوم حتى ظننت أن البكاء فالق كبدى . . » .

ثم قالت ـ رضى الله عنها ـ : «وكنت أرجو أن يبرئنى الله ـ عز وجل ـ ، ولكنى والله ما ظننت أن ينزل الله فى شأنى وحيا ، ولأنا أحقر فى نفسى من أن ينزل القرآن فى أمرى ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النوم رؤيا يبرئنى الله فيها . . » .

هذا ما كانت تشعر به الصديقة بنت الصديق ـ رضى الله عنهما ـ بعد أن أشاع عنها المنافقون ما هى بريئة منه .

ـ ٢ ـ

ولقد نزل القرآن الكريم ببراءتها فى ست عشرة آية من سورة «النور» وافتتحت هذه الآيات بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا

لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ .

ثم وصف - سبحانه - الخائضين فى حديث الإفك بافتراء الكذب، لأنهم تفوهوا بأراجيف لا دليل عليها فقال : ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ .

أى : هلا جاء هؤلاء المنافقون الذين أشاعوا السوء عن السيدة عائشة، بأربعة شهداء يشهدون لهم على ثبوت ما تفوهوا به؟!

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أى: فما داموا لم يأتوا بهؤلاء الشهداء - وهم لن يأتوا بهم - ﴿فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ .

أى : فأولئك المنافقون فى حكم الله - تعالى - وفى شريعته، هم الكاذبون كذبا قبيحا تشمئز منه النفوس، ويسجل عليهم الخزى والعار إلى يوم الدين .

-٣-

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين فقال : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ولفظ «لولا» هنا : يدل على امتناع الشىء لوجود غيره، ولفظ «أفضتم» من الإفاضة بمعنى التوسع فى الشىء والاندفاع فيه دون تريث أو تحقق، وأصله من قولهم : أفاض فلان الإناء، إذا ملأه حتى نزل منه الماء .

والمعنى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم - أيها المؤمنون - فى الدنيا، حيث أعطاكم - سبحانه - فرصته للتوبة، وبشركم بقبول توبتكم فى الآخرة متى كانت توبة صادقة نصوحا، لولا ذلك لنزل بكم بسبب ما أكثرتم فيه من حديث الإفك، عذاب عظيم لا يعلم مقدار ألمه وشدته إلا الله - تعالى - .

-٤-

ثم صور - سبحانه - أحوال المؤمنين فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾.

أى: لأصابكم عذاب عظيم وقت تلقيكم هذا الحديث السيئ لسانا عن لسان باستخفاف واستهتار، ويأخذه بعضكم عن بعض دون تحرج أو تدبر، وتقولون بأفواهكم قولا تلوكه الألسنة دون أن يكون معه بقية من علم أو بينة أو دليل.

فأنت ترى أن فى هاتين الجملتين زجر شديد لأولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك دون تدبر أو تعقل، حتى لكأنهم - وقد أفلت منهم الزمام، واستزلهم الشيطان - ينطقون بما ينطقون به بأفواههم لا بوعيهم، وبألسنتهم لا بعقولهم ولا بقلوبهم، وإنما هم ينطقون بكلمات لا علم لهم بحقيقتها، ولا دليل معهم على صدقها.

وهذ كله يتنافى مع ما يستلزمه الإيمان الصحيح من تثبيت ومن حسن ظن بالمؤمنين.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما هو أشد فى الزجر والتهديد فقال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

أى: وتحسبون أن ما خضتم فيه من كذب على الصديقة بنت الصديق - رضى الله عنهما - شيئا هينًا، والحال أن ما فعلتموه ليس كذلك، بل هو عند الله وفى حكمه شىء عظيم، تضج لهوله السموات والأرض؛ لأن ما خضتم فيه، يسىء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ويسىء إلى أهل بيته، ويسىء إلى صحابى جليل هو صفوان بن المعطل - رضى الله عنه - ويسىء إلى بيت أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - بل ويسىء إلى المسلمين جميعا.

-٥-

ثم وجههم - سبحانه - مرة أخرى إلى ما كان يجب عليهم أن يفعلوه فى مثل هذه الأحوال فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

وأصل معنى «سبحانك» : تنزيه الخالق - عز وجل - عن كل نقص ، ثم شاع استعماله فى كل أمر يتعجب منه ، وهذ المعنى هو المراد هنا .

والبهتان : هو الكذب الذى يبهت ويحير سامعه لشناعته وفظاعته .

والمعنى : وهلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون - حديث الإفك ممن افتراه واخترعه ، قلتم له على سبيل الزجر والردع والإفحام : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، وما يصح منا إطلاقا أن ننطق بهذا الحديث البالغ أقصى الدركات فى الكذب والافتراء .

وقلتم له - أيضا - على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر : «سبحانك» أى : نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه ، فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - ، كذب يبهت ويدهش من يسمعه ، وهو فى الشناعة لا تحيط بوصفه عبارة .

وهكذا يؤدب الله - تعالى - عباده المؤمنين بهذا الأدب السامى ، حيث يأمرهم فى مثل هذه الأحوال ، أن ينزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع إلى ما يسىء إلى غيرهم ، وأن يتحرجوا من مجرد النطق بمثل هذه الإشاعات الكاذبة ، والأراجيف الباطلة ، وأن يستنكروا ذلك على كل من يتفوه بها !!

- ٦ -

ثم نهى - سبحانه - عباده المؤمنين من العودة إلى مثل هذا اللفظ الفاسد فقال : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

أى : يعظكم الله - تعالى - أيها المؤمنون - بما يرقق قلوبكم ، وبما يحذركم من العودة إلى الخوض فى حديث الإفك ، أو فيما يشبهه من أحاديث باطلة ، وعليكم أن تمتثلوا ما آمركم به ، وما أنهاكم عنه امتثالا كاملاً ، إن كنتم مؤمنين بما جاءكم به نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - إيمانا كاملا .

ويبين الله ـ تعالى ـ لكم الآيات والأحكام والآداب التى تسعدكم فى دنياكم وفى آخرتكم متى اتبعتم ما اشتملت عليه من هدايات، والله ـ تعالى ـ عليم بأحوال خلقه، حكيم فى جميع ما يأمر به أو ما ينهى عنه.

ففى هاتين الآيتين تهييج وإثارة لحماستهم؛ لكى يستجيبوا لوعظه وتحذيره ـ سبحانه ـ وإبراز لما تفضل به عليهم من تعليم وتوجيه وحسن تربية.

ـ ٧ ـ

ثم واصل القرآن الكريم توجيهاته الحكيمة الحاسمة، فهدد الذين يحبون أن تشيع إشاعات السوء بين المؤمنين، وتوعدهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

قال الإمام الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: «اعلم أنه ـ سبحانه ـ بعد أن بين ما على أهل الإفك من ذنوب شنيعة، وما على من سمع منهم من آثام شديدة، وما يجب أن يتمسك به المؤمنون من آداب، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الذين يفرحون بالأخبار التى فيها ما يؤذى المؤمنين، ولكى يعلم أهل الإفك، كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه، فكذلك يستحقون العقوبة بما أسروه».

ومعنى «تَشِيع»: تنتشر وتكثر، ومنه قولهم: شاع الحديث، إذا ظهر وعمم بين الناس.

والفاحشة: هى الصفة البالغة أقصى دركات القبح، وأكثر ما تكون إطلاقا على رذيلة الزنا.

والمعنى: إن الذين يحبون أن تنتشر قالة السوء بين صفوف المؤمنين وفى شأنهم، لكى يلحقوا الأذى بهم، هؤلاء الذين يفعلون ذلك: لهم بسبب نواياهم السيئة، عذاب أليم فى الدنيا، عن طريق إقامة الحد الشرعى عليهم، وازدراء العقلاء الشرفاء لهم، أما فى الآخرة فلهم عذاب أشد وأبقى من عذاب الدنيا.

والله ـ تعالى ـ وحده، هو الذى يعلم ما ظهر وما بطن من الشئون والأحوال، وأنتم ـ أيها الناس ـ لا تعلمون إلا ما كان ظاهرا منها، فعاملوا الناس على حسب ظواهرهم، واتركوا بواطنهم لخالقهم، فهو الذى محاسبهم عليها.

فالآية الكريمة يؤخذ منها: أن العزم على ارتكاب القول القبيح، أو الفعل الذميم، منكر يعاقب عليه صاحبه، وأن محبة الفجور وشيوع الفواحش فى صفوف المؤمنين، ذنب عظيم يؤدى إلى العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة؛ لأن الله ـ تعالى ـ علق الوعيد الشديد فى الدارين على محبة انتشار الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة فى صفوف المؤمنين.

ـ ٨ ـ

ثم ذكر ـ سبحانه ـ المؤمنين مرة أخرى بفضله عليهم، لكى يزدادوا اتعاظا واعتبارا، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وجواب «لولا» هنا محذوف، كما أن خبر المبتدأ ـ أيضا ـ محذوف، والتقدير: ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم موجودان بالنسبة لكم ـ أيها المؤمنون ـ لعاجلكم ـ سبحانه ـ بالعقوبة، ولكنه ـ عز وجل ـ لم يعاجلكم بها، لأنه شديد الرأفة والرحمة بكم، ولو أنه يؤاخذكم بما كسبتم، لأنزل بكم عقابه العادل، إلا أنه ـ سبحانه ـ يعفو عن كثير.

ـ ٩ ـ

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء إلى المؤمنين، نهاهم فيه عن اتباع خطوات الشيطان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

ولفظ «الخطوات»: جمع خطوة، وهى فى الأصل تطلق على ما بين القدمين،

والمراد بها هنا: طرقه ووساوسه التى منها الإصغاء إلى حديث الإفك والخوض فيه، وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة.

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، احذروا أن تسلكوا المسالك التى يغريكم بسلوكها الشيطان، فإن الشيطان وظيفته الإغراء بالشر لا بالخير، وبالكذب لا بالصدق، وبالفحشاء لا بالفضائل.

وقوله - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أى: ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته بكم، ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصى طول حياته، ولكن الله - تعالى - بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والأنجاس، بأن يقبل توبته، ويغسل حوبته، والله - تعالى - سميع لدعاء عباده ومناجاتهم إياه، عليم بما يسرونه وبما يعلنونه من أقوال وأفعال.

ومن كل ما سبق من توجيهات وتحذيرات، نرى كيف اهتم القرآن الكريم بالرد على المنافقين الذين أشاعوا السوء عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - وبإرشاد المؤمنين إلى ما يهديهم إلى الصراط المستقيم، وسنرى فى الصفحات التالية - بإذن الله - المزيد من التوجيهات والتحذيرات، وبالله التوفيق.

جانب ثالث مما أشاعه المنافقون
عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ

ـ ١ ـ

شريعة الله ـ تعالى ـ التى أنزلها على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اهتمت اهتماما واضحا، بغرس روح الإخاء الصادق، والحب الخاص، والأدب الرفيع، والعفاف الشريف بين أتباعها، وفى الوقت ذاته حاربت كل رذيلة من شأنها أن تسيء إلى أعراض الناس أو إلى كرامتهم.

ومن الأدلة على ذلك أن حديث الإفك الذى أشاعه المنافقون عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لم يتركه القرآن الكريم يمر دون نصح للمؤمنين وتهديد للمنافقين، وإنما أورد القرآن الكريم بشأنه ست عشرة آية من سورة «النور»، هذه الآيات فيها ما فيها من الأحكام والآداب والترغيب والترهيب وبيان فضل الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين.

ـ ٢ ـ

والآيات الأخيرة من هذه القصة، نراها بعد أن نهت المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان، اتبعت ذلك بحض أصحاب النفوس النقية الطاهرة، على المواظبة على ما تعودوه من سخاء وسماحة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ٢٢).

وقد صح أن هذه الآية الكريمة قد نزلت فى شأن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بعد أن أقسم ألا يعطى شيئا من أمواله لأحد أقاربه وهو «مسْطَح بن أثاثه» وقال: «والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال فى عائشة» وكان مسطح من فقراء المهاجرين، فلما نزلت هذه الآية كفر الصديق عن يمينه، ورجع إلى إعطاء مسطح ما كان يعطيه إياه من قبل.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا يَأْتَلِ﴾ أى: ولا يحلف. يقال آلى فلان إذا حلف، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ (البقرة: ٢٢٦).

والمعنى: ولا يحلف أصحاب الإيمان العميق، وأصحاب المال الوفير منكم ـ أيها المؤمنون ـ على أن يمنعوا من عطائهم أقاربهم والمحتاجين من المسلمين، والمهاجرين الذين فى حاجة إلى العون والمساعدة.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: تحريض على العفو والصفح.

والعفو معناه: التجاوز عن خطأ المخطئ ونسيانه، مأخوذ من عفت الريح الأثر: إذا طمسته وأزالته.

والصفح معناه: مقابلة الإساءة بالإحسان، فهو أعلى درجة من العفو.

أى: قابلوا ـ أيها المؤمنون ـ إساءة المسيء بنسيانها، وادفعوها بالإحسان إليه كرما منكم وفضلا.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: تحريض آخر على التحلى بما يرفع الدرجات عند الله ـ تعالى ـ أى: ألا تحبون ـ أيها المؤمنون ـ أن يغفر الله لكم ذنوبكم بسبب عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم؟

فالجملة الكريمة ترغيب فى العفو والصفح بأبلغ أسلوب، وقد صح أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين سمع هذه الآية الكريمة قال: «بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا» وأعاد إلى مسطح نفقته!! وفى رواية أنه ضاعفها له!!

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة، بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أى : والله ـ تعالى ـ كثير المغفرة، واسع الرحمة بعباده، فكونوا ـ أيها المؤمنون ـ أصحاب عفو وصفح عمن أساء إليكم .

-٣-

وبعد أن أمر ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بالعفو والصفح عن الذين استزلهم الشيطان، فخاضوا فى حديث الإفك ثم ندموا وتابوا، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة المصرين على خبثهم، وعلى نشر الإشاعات الكاذبة عن الأطهار الأخيار، فقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ .

ولفظ «المحصنات»: جمع محصنة . والإحصان فى اللغة بمعنى المنع . يقال: هذه درع حصينة، أى: مانعة صاحبها من الجراحة، ويقال: هذا موضع حصين، أى: مانع من يريده بسوء .

والمراد بالمحصنات هنا: النساء العفيفات البعيدات عن كل ريبة وفاحشة، وسميت المرأة العفيفة بذلك، لأنها تمنع نفسها من كل سوء .

والمعنى: إن الذين يقذفون بالفاحشة النساء المحصنات المانعات أنفسهن عن كل سوء وريبة، والغافلات عن أن تدور الرذيلة بأذهانهن؛ لأنهن طبعن على التخلق بالأخلاق الفاضلة الكريمة، والكاملات فى إيمانهن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . إن هؤلاء المنافقين الذين يتفوهون بالسوء على هؤلاء النساء الطاهرات، طردوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة، وفوق كل ذلك لهم منه ـ سبحانه ـ عذاب عظيم لا تحيط الكلمات والعبارات بوصفه .

وهذا العذاب العظيم لهم سيكون يوم يقفون أمام الله للحساب، فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بما كانوا يعملون فى الدنيا من أعمال سيئة، وبما كانوا يقولونه من أقوال قبيحة .

فالمراد بشهادة ألسنتهم وأيديهم: نطقها وإخبارها عما كانوا يشيعونه فى الدنيا من إشاعات كاذبة، ومن أراجيف قبيحة، عن المحصنات الغافلات المؤمنات.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥).

والمقصود بالدين فى قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾: العقاب والجزاء الذى يستحقونه بسبب ذنوبهم وآثامهم.

أى: فى يوم القيامة الذى تشهد فيه الجوارح على صاحبها، يجازى الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين الجزاء الحق العادل الذى يستحقونه بسبب قذفهم النساء المحصنات الغافلات المؤمنات بأقبح التهم الباطلة، ويعلمون علما لا مجال معه للشك أو الريب عندما يشاهدون العذاب، أن الله - تعالى - هو الإله الحق فى ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه - عز وجل - هو المظهر لما أبطنته النفوس، وخبأته الضمائر، والقادر على مجازاة الذين أساءوا بما عملوا، ومجازاة الذين أحسنوا بالحسنى.

- ٤ -

ثم ختم - سبحانه - الآيات التى نزلت فى حديث الإفك بتقرير سنته الإلهية التى نشاهدها فى واقع الناس، وهى أن شبيه الشىء منجذب إليه، وأن الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف - كما جاء فى الحديث الشريف - فقال: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ أى: الخبيثات من النساء، مختصات بالخبيثين من الرجال، ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال، مختصون «بالخبيثات» من النساء ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ منهن ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ منهم، و﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ - أيضا - منهم ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ منهن.

وهكذا يألف الشكل شكله، والطيور على أشكالها تقع، وإذا كان النبى - صلى الله عليه وسلم - هو أطيب الطيبين، فلا يمكن أن يكون أزواجه - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسهن عائشة - رضى الله عنها - إلا من أطيب الطيبات من النساء، وأطهر الطاهرات منهن.

ثم جاءت بعد ذلك شهادة الله ـ تعالى ـ وهى تغنى عن كل شهادة، بما يثبت براءة عائشة ـ رضى الله عنها ـ من كل ما افتراه عليها المفترون، جاء قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

أى: أولئك الطيبون والطيبات وعلى رأسهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته، وعلى رأس أهل بيته عائشة ـ رضى الله عنها ـ مبرءون مما يقولون، أى: مما يقوله الخبيثون والخبيثات فى شأنهم، وأولئك الطيبون والطيبات لهم مغفرة عظيمة من الله ـ تعالى ـ ولهم رزق كريم، هو جنة عرضها السموات والأرض، جزاء إيمانهم وعملهم الصالح، وصبرهم على الأذى.

هذا هو حديث القرآن عن حديث الإفك، الذى أشاعه المنافقون عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وكان مقصدهم الأكبر من وراء ذلك هو الطعن فى نبوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن الله ـ تعالى ـ رد عليهم بما يكبتهم.

ـ ٥ ـ

هذا، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة جملة من الأحكام والآداب من أهمها ما يأتى:

أ ـ غَيْرةُ الله ـ تعالى ـ على حرمة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفاعه ـ سبحانه ـ عن أوليائه، ورده لكيد المنافقين فى نحورهم.

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: هذه الآيات نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين، بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التى غار الله ـ تعالى ـ لها ولنبيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فأنزل الله ـ سبحانه ـ براءتها صيانة لعرض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ب ـ تسلية الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث المفترى على الصديقة بنت الصديق، وقد ظل هذا الحديث يتردد فى جنبات المدينة، حتى نزلت هذه الآيات لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

جـ ـ إرشـاد المؤمنين فى كل زمـان ومكان إلى أن من أنجح الوسـائل لمحـاربة الإشاعات الكاذبة : أن يحسن بعضهم الظن ببعض ، وأن يكتموا هذه الإشاعات حتى تموت فى مهدها ، وأن يزجروا من يتفوه بها أو من يعمل على ترويجها ، وأن يظهروا له احتقارهم ونفورهم من مجرد سماعها .

وهذا الإرشاد الحكيم نراه فى آيات متعددة من هذه القصة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ .

د ـ بيان جانب من مظاهر فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده المؤمنين الذين سبقتهم ألسنتهم بالخوض فى حديث الإفك أو فى سماعه ، ثم تابوا بعد ذلك مما وقعوا فيه .

ويتجلى هذا الفضل العظيم فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً . . ﴾ .

هـ ـ تحذير المؤمنين تحذيرا شديدا من مغبة الوقوع مرة أخرى فيما وقع فيه بعضهم من الخوض فى حديث الإفك ، وفيما يشبهه من أحداث ، وبيان أن ما حدث من بعضهم يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان ، ومع آداب الإسلام .

ومن الآيات التى وردت فى هذا التحذير قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

و ـ تهديد الذين افتروا حديث الإفك بخبث وسوء نية ، بأشد ألوان العذاب فى الدنيا والآخرة ، ووصفهم بأقبح الصفات التى تدعو إلى نبذهم وإلى البعد عنهم واحتقارهم .

ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «ولو فليت القرآن كله ، وفتشت عما توعد الله به العصاة ، لم تر الخالق - عز وجل - قد غلظ فى شىء تغليظه فى الإفك على عائشة - رضوان الله عليها - فقد أوجز - سبحانه - فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ونفى التهمة عن حرمته» .

ز - توجيه المؤمنين الصادقين إلى العفو والصفح عمن شارك فى حديث الإفك بالقول أو بالسماع أو بالرضا به ما دام هؤلاء المشاركون قد تابوا وندموا على ما وقع منهم ، ندما يدل على حسن توبتهم . .

ويشهد لهذا التوجيه قوله - تعالى - : ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ . . .﴾ .

حـ - تكريم السيدة عائشة تكريما يظل ملازما لها إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها ، فقد برأها - سبحانه - مما افتراه عليها المفترون ، وشهد بحصانتها وعفافها وقوة إيمانها ، ويكفيها فخرا قوله - تعالى - : ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

نسأل الله - تعالى - أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم .

جانب مما أشاعه المشركون عن القرآن الكريم

-١-

القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على قلب نبيه وخاتم رسله محمد - صلى الله عليه وسلم - لكى يخرج الناس به من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ولكى يكون الهداية العظمى إلى كل ما هو أقوم، ولكى يكون المعجزة الخالدة الناطقة بصدقه - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه.

قال - تعالى -: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سورة إبراهيم: ١).

وقال - سبحانه -: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩).

وقال - عز وجل -: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.... ﴾ (الحشر: ٢١).

ولكن هذا القرآن الذى هو كلام الله - تعالى -، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أشاع عنه أعداؤه ما أشاعوا من أقاويل باطلة، ومن أراجيف كاذبة يمجها العقل السليم، ويلفظها النقل القويم.

وقد قص علينا الخالق - عز وجل - فى كتابه الكريم، ألوانا من هذه الإشاعات، ورد عليها بما يدحضها، وبما يفضح أصحابها على رءوس الأشهاد.

-٢-

ومن هذه الإشاعات ما زعمه أعداء الحق من أن هذا القرآن، ما هو إلا أساطير الأولين، وقد تكرر ذلك منهم في تسع مواضع من الآيات القرآنية، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٢٥).

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ «أن أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، استمعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر بن الحارث: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعل الكعبة بيته ما أدرى ما يقول!! إلا أنى أرى تحرك شفتيه يتكلم بشيء فما يقول إلا أساطير، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، وكان يحدث قريشا فيستمحلون حديثه، فأنزل الله هذه الآية».

ومعنى الآية الكريمة: ومن هؤلاء المشركين يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوم يستمعون إليك وأنت تقرأ القرآن، وقد جعلنا على قلوبهم بسبب عنادهم وجحودهم، أغطية وحجبا تحول بينهم وبين فهم هذا القرآن فهما سليما، كما جعلنا فى آذانهم صمما يمنعهم من سماعه بتدبر وفهم.

ثم صور ـ سبحانه ـ عنادهم وإعراضهم عن الحق مهما وضحت براهينة فقال: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾.

أى: وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك فلن يؤمنوا بها: لاستحواذ الغرور والعناد على قلوبهم.

وهذه الجملة الكريمة المقصود بها ذمهم، لعدم انتفاعهم بنعمة البصر، بعد ذمهم على عدم انتفاعهم بعقولهم وأسماعهم. ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان يحدث منهم مع

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

والأساطير: جمع أسطورة، ومعناها: الخرافات والترهات والأقوال التى لا صحة لها.

أى: حتى إذا ما جاءوا إليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ليخاصموك وينازعوك فى دعوتك، ما كان منهم إلا أن قالوا لك بسبب عنادهم وجحودهم للحق، ما هذا القرآن الذى نسمعه منك، إلا أقاصيص الأولين، ومن خرافاتهم وأوهامهم.

وفى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ إشارة إلى أن مجيئهم إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن من أجل الوصول إلى الحق، وإنما كان من أجل المجادلة المتعنتة معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ثم وضح ـ سبحانه ـ أنهم لا يكتفون بالإشاعات الكاذبة حول القرآن الكريم، بل هم فوق ذلك يحرضون غيرهم على محاربته فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام: ٢٦).

أى: أن هؤلاء الجاهلين المعاندين الحاسدين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يكتفون بمحاربة القرآن، وبإشاعة الأكاذيب عنه، بل يزجرون غيرهم عن اتباعه، ويبعدونهم عن الاستماع إليه، وينهونهم عن الاقتراب من الأماكن التى يتلى فيها القرآن، فهم قد جمعوا بين فعلين قبيحين: محاربتهم للقرآن وحمل غيرهم على محاربته وعلى البعد عنه، وهم بهذا العمل السيّئ ما يهلكون إلا أنفسهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك، لانطماس بصيرتهم، ولقسوة قلوبهم، ولتغلب الحسد على نفوسهم.

وعملهم هذا يدل على أنهم كانوا متأثرين بالقرآن الكريم، ومدركين أنه ليس من كلام البشر؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون أنه أساطير الأولين ـ كما زعموا ـ لتركوا الناس يسمعونه، لكى يتأكدوا من أنه خرافات وأوهام، ولكنهم لما كانوا موقنين ببلاغة القرآن الكريم وبصدقه، فإنهم نهوا غيرهم عن سماعه حتى لا يتأثر به، وابتعدوا هم عنه حتى يشيعوا بين الناس أنه لا يستحق أن يستمع إلى هذا القرآن أحد!!

وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذا السلوك الخبيث، وهو إشاعة الأقوال الباطلة حول القرآن الكريم، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

ومعنى «والغوا فيه»: تصايحوا عند سماعه حتى لا يسمعه أحد، وارفعوا أصواتكم بالكلام الساقط الذى لا معنى له. وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية الكريمة، أن أبا جهل وغيره من زعماء مشركى قريش، كانوا يأمرون أتباعهم بالابتعاد عن سماع القرآن الكريم، وكانوا يقولون لهم: إذا قرأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه شيئا من القرآن، فصيحوا فى وجوههم حتى لا يعرف أحد شيئا عن هذا القرآن.

أى: وقال زعماء الشرك لأتباعهم، لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يقرؤه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، ولا تنصتوا إليه، بل ابتعدوا عنه، «والغوا فيه» أى: وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو من القول، كالتشويش على القارئ، والتخليط عليه فى قراءته بالتصفيق ورفع الصوت بالخرافات والهذيان.

«لعلكم تغلبون» أى: لعلكم بعملكم هذا تتغلبون على المسلمين، وتجعلونهم ينصرفون عن سماع هذا القرآن.

ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب، هذا التأثير الذى حمل عددا كبيرا منهم عند سماعه على الدخول فى الإسلام، ونبذ الشرك والمشركين، كما حدث من عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقد كان من أسباب إيمانه، سماعه بتدبر وتفكر للقرآن الكريم.

ـ٣ـ

ومن الإشاعات الكاذبة التى أشاعها زعماء الكفر حول القرآن الكريم، لكى ينصرف الناس عن سماعه: دعواهم أنهم فى قدرتهم واستطاعتهم أن يأتوا بكلام مثل القرآن الكريم فى بلاغته وفصاحته وقوة تأثيره فى النفوس، ومما ذكره القرآن

عنهم فى هذا الشأن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال : ٣١).

وقد ذكر كثير من المفسرين أن القائل لهذا القول: النضر بن الحارث، فإنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس فأحضر منها قصصا عن ملوكهم، ولما قدم مكة ووجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلو القرآن، قال للمشركين: لو شئت لقلت مثل هذا القرآن!! وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قام من مجلس، جاء بعده «النضر بن الحارث» فجلس فيه، وحدث المشركين بأخبار ملوك فارس والروم وغيرهم، ثم قال لهم: أينا أحسن كلاما أنا أو محمد؟!

وأسند ـ سبحانه ـ قول «النضر بن الحارث» إلى جميع المشركين؛ لأنهم كانوا راضين بقوله، ولأنه كان واحدا من زعمائهم الذين كانوا يشجعونه على إشاعة الأراجيف عن القرآن الكريم.

والمعنى: أن هؤلاء الجاهلين الجاحدين لما جاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند ربه من قرآن كريم، قد بلغ بهم الكذب والتمادى فى الحسد والطغيان، أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات القرآن الكريم قالوا بغرور وصلف: قد سمعنا ما قد قرأته علينا يا محمد ووعيناه، ولو أردنا أن نقول قولا مثل هذا القرآن فى البلاغة والفصاحة لفعلنا، ولكننا لا نريد أن نفعل ذلك استخفافا بما جئت به، واعلم يا محمد أن هذا القرآن الذى تقرؤه علينا، ما هو إلا من أساطير الأولين، أى: من خرافاتهم وحكاياتهم التى أخذها اللاحقون عن السابقين.

ولا شك أن قولهم: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ أى: مثل هذا القرآن: لا شك أن هذا القول منهم يدل على تعمدهم الكذب على أنفسهم وعلى الناس.

بدليل أن الله ـ تعالى ـ قد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا. قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور: ٣٤).

ثم تحداهم ـ سبحانه ـ أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن فما استطاعوا. قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود: ١٣)

ثم تحداهم - عز وجل - فى نهاية المطاف أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثل القرآن الكريم، فباءوا بالفشل وانقلبوا خاسرين، قال - تعالى -: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣، ٢٤).

والذى نعتقده أن قول بعض زعماء المشركين للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه: لو نشاء لقلنا قولا مثل هذا القرآن فى بلاغته وفصاحته، قولهم هذا ما هو إلا من باب الحرب النفسية، ومن باب الإشاعات الكاذبة التى كانوا يشنونها على الدعوة الإسلامية، وعلى القرآن الكريم الذى هو لسان هذه الدعوة، وكان قصدهم من كل ذلك: تضليل البسطاء والوقوف فى وجه تأثير القرآن فى القلوب، ومحاولة طمس معالم الحق ولو إلى وقت قليل.

ولكنهم لم يفلحوا، فإن نور الحق لا تحجبه الشبهات الزائفة، ولا يعدم الحق أن يجد له أنصارا حتى من أعدائه، الذين قال أحدهم عند سماعه للقرآن: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة.. وما يقول هذا بشر».

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ (الأنفال: ٣١).

قال - رحمه الله -: «نفاجةٌ منهم - أى: غرور وانتفاخ منهم - وصلف تحت الراعدة، فإنهم لم يتوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة، وإلا فما الذى منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاءوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز - إنهم لو استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثل القرآن لما سكتوا ولكن العجز أخرسهم...».

وهكذا يسوق القرآن إشاعات المشركين عنه، ثم يقذفها بالحق الذى يدمغها ويزهقها ويدحضها..

جانب آخر مما أشاعه الجاهلون عن القرآن الكريم

-١-

من مزايا أسلوب القرآن الكريم فى بيانه لما هو حق ولما هو باطل، أنه لا يكتم ما أشاعه عنه أعداؤه من أراجيف وأكاذيب، وإنما يسوقها بأمانة كما تفوه بها أصحابها ومروجها، ثم يرد عليها بالرد المناسب الحكيم الذى يقنع كل ذى عقل سليم.

لقد زعم المكذبون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولما جاء به من عند ربه ـ عز وجل ـ أن هذا الذى جاء به من قرآن هو من أساطير الأولين، وقص علينا القرآن أقاويلهم هذه فى تسع مواضع من آياته، ورد على كل موضع بما يقتضيه حال هؤلاء الجاهلين، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

والسؤال: هل اكتفى الناشرون للإشاعات الكاذبة عن القرآن الكريم بوصفه أساطير الأولين؟

-٢-

كلا إنهم لم يكتفوا بذلك، بل أضافوا إلى ما روجوه من أباطيل إشاعات أخرى لا تقل عن سابقتها فى البطلان، ومن ذلك زعمهم أن هذا القرآن قد تلقاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعلمه من رجل ليس عربيا، وقد قص القرآن ذلك على الناس، ورد على هؤلاء المرجفين بما يبهتهم ويخزيهم فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣).

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: «يقول ـ تعالى ـ مخبرا عن

المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - إنما يعلمه هذا القرآن الذى يتلوه علينا رجل من البشر، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بياعا يبيع عند الصفا بعض الأشياء، وربما كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يجلس إليه ويكلمه بعض الكلمات، وذاك الرجل كان أعجمى اللسان لا يعرف إلا القليل من العربية». . .

ثم قال - رحمه الله -: «وعن عكرمة وقتادة، كان اسم ذلك الرجل «يعيش» وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - كان اسمه «بلعام»، وكان أعجمى اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه «بلعام» فأنزل الله هذه الآية».

- ٣ -

وقوله - تعالى -: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾: رد عليهم فيما زعموه وافتروه. والمقصود باللسان هنا: الكلام الذى يتكلم به الشخص، واللغة التى ينطق بها.

وقوله - سبحانه -: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ من الإلحاد بمعنى الميل. يقال: لحد فلان وألحد، إذا مال عن القصد. وسمى الملحد ملحداً، لأنه أبعد نفسه وأمالها عن الأديان كلها ولم يعترف بها.

ولفظ «الأعجمى» نسبة إلى الإنسان الأعجم. وهو الإنسان الذى لا يفصح فى كلامه بالعربية، سواء أكان من العرب أم من غيرهم، وزيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد.

والمعنى: لقد كذبتم - أيها المشركون - كذبا شنيعا صريحا، وأرجفتم بما ينبذه النقل والعقل، حيث زعمتم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلمه القرآن بشر، مع أن لغة هذا الإنسان الذى زعمتم أنه يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - القرآن، ليست عربية وإنما هى لغة أعجمية، ولغة القرآن لغة عربية فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة، فخبرونى بربكم!! من أين للإنسان الأعجمى أن

يتذوق بلاغة هذا القرآن وما حواه من هدايات، فضلا عن أن ينطق به، فضلا عن أن يعلمه لغيره؟!

وهكذا يقص القرآن إشاعات المشركين على الناس، لكى يعتبروا ويتعظوا، ثم يكر عليها بالأدلة الساطعة التى تمحقها وتدحضها، وتزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، وثباتا على ثباتهم.

- ٤ -

وشبيه بما ذكرته هذه الآية الكريمة عن هؤلاء المشركين من إشاعات كاذبة عن القرآن الكريم، من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد تعلمه من رجل أعجمي، ما جاء فى آيات أخرى منها قوله - سبحانه -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑤ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٤ - ٦).

والإفك: أسوأ الكذب وأقبحه. يقال: أفك فلان فى قوله، إذا نطق بأشنع الكذب.

والزور فى الأصل، يطلق على تحسين الباطل، وأطلق على الباطل أنه زور، لما فيه من الميل عن الصدق إلى الكذب.

والمعنى: وقال الذين كفروا فى شأن القرآن الكريم الذى أنزله - سبحانه - على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، قالوا: ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان «افتراه» واخترعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند نفسه «وأعانه عليه» أى: وساعده فى اختلاقه واختراعه «قوم آخرون» من اليهود أو غيرهم، «كعداس» مولى حويطب بن عبد العزى، و«كيسار» مولى العلاء بن الحضرمى، و«كأبى فكيهة الرومى» وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا.

وقوله - عز وجل -: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾: رد على أقوال المشركين، أى:

فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما، وزورا كبيرا، حيث وضعوا الباطل موضع الحق، والكذب موضع الصدق.

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة، ومن إشاعاتهم الكاذبة فقال: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾.

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن، بل أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أمر غيره بكتابتها له، وبجمعها من كتب السابقين، وأن هذه الأساطير والخرافات يتلقاها الرسول - صلى الله عليه وسلم - خفية فى الأوقات التى يكون الناس فيها نائمين أو غافلين فى الصباح المبكر، أو فى المساء المتأخر.

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

أى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين: لقد كذبتم أشنع الكذب، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن قد أنزله الله - تعالى - وحده، على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -، أنزله الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بما يفتح باب التوبة للتائبين، وبما يحرضهم على الإيمان والطاعة لله رب العالمين، فقال - تعالى -: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

أى: إنه - عز وجل - واسع المغفرة والرحمة، لمن ترك الشرك وعاد إلى الإيمان، وترك العصيان وعاد إلى الطاعة.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه واسع وعظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم، وقولهم عن الرسول وعن القرآن ما قالوا، يدعوهم - سبحانه -

إلى التوبة وإلى الإقلاع عما هم عليه من شرك وكفر، كما قال - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤).

-٥-

ومن الإشاعات الكاذبة التى روجها أعداء الإسلام عن القرآن: زعمهم أن هذا القرآن لو كان من عند الله - تعالى - حقا وصدقا، لنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - دفعة واحدة، ولم ينزل عليه مفرقا فى مدة تزيد على عشرين عاما.

وقد رد القرآن على هذه الأراجيف الباطلة بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ (الفرقان: ٣٢، ٣٣).

أى: وقال الذين كفروا بالحق الذى جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم -: هلا نزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - جملة واحدة، دون أن ينزل هكذا مفرقا فى سنوات طويلة كما نراه ونسمعه؟!

وقولهم هذا إنما يقصدون به التشكيك فى صحة أن هذا القرآن من عند الله - تعالى -، كما يقصدون صرف الناس عن الاستماع إليه، وعن الإيمان بمن نزل عليه هذا القرآن وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم.

ولذا رد عليهم - سبحانه - بما يكبتهم ويفضح جهلهم فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾.

أى: أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن مفرقا ولم ينزله عليك جملة واحدة، لنثبت به قلبك، وقد رتلناه ترتيلا بديعا، ونسقناه تنسيقا حكيما، حتى يزداد أتباعك إيمانا على إيمانهم.

وما دام الأمر كذلك، فسر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - ولا تلتفت إلى ما يشيعه أعداؤك عنك وعن القرآن من أكاذيب، فإنهم لا يأتونك بكلام عجيب هو

مثل فى التهافت والفساد، إلا وجئناك نحن بالجواب الحق الثابت الصادق، الذى يزهق باطلهم، والذى هو أحسن تفسيرا وبيانا من أمثالهم وشبهاتهم.

وشبيه بهذه الآية فى الرد على هؤلاء الكافرين الذين اعترضوا على نزول القرآن مفرقا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾.

أى: أنزلناه مفرقا ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى: لتقرأه على الناس على تؤده وتمهل وحسن ترتيل، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾: «ونزلناه تنزيلا» فى مدة تزيد على عشرين سنة، حسب ما اقتضته حكمتنا ومشيئتنا.

ـ ٦ ـ

ومن أقبح الإشاعات الكاذبة ما أشاعه المنكرون لما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند ربه من قرآن، وزعمهم أن الله ـ تعالى ـ لم ينزل كتابا على واحد من البشر سواء أكان نبيا أم غير نبى، وقد رد القرآن عليهم بما يجعل كل عاقل يسخر منهم ومن أراجيفهم فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١).

والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين الجاهلين المنكرين للحق الأبلج الواضح، ما عظموا الله ـ تعالى ـ حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم؛ لأنهم أنكروا نزول أى كتاب على أى رسول، كما أنكروا نزول القرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم، وأن يرد على سلبهم العام بقضية جزئية بديهية التسليم فقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين القائلين ما أنزل الله على بشر من شىء، وهم يقصدون أن يشيعوا بين الناس أن الله - تعالى - لم ينزل عليك شيئا من القرآن، قل لهم : الله - تعالى - هو الذى أنزل التوراة وهو الكتاب الذى جاء به موسى - عليه السلام - من عند ربه؛ ليكون نورا وهداية للناس، وأنتم - أيها الجاحدون للحق - قد جعلتم هذا الكتاب «قراطيس» أى : أوراقا مفرقة تظهرون منها ما يناسب أهواءكم، وتخفون الكثير منها لأنه لا يناسب أهواءكم. وأنتم - أيها الجاهلون - قد تعلمتم عن طريق هذا القرآن الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - الكثير من العلوم والمعارف والهدايات، وكذلك تعلم آباؤكم من قبلكم الكثير من هدايات الكتب السماوية.

وقوله - تعالى -: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ختام قصد به تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن أكاذيبهم، أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : الله - عز وجل - هو الذى أنزل الكتب السماوية على بعض الرسل من قبلى، وأنزل على هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبعد أن تقول لهم ذلك اتركهم فى باطلهم يخوضون. والحق أن الله - تعالى - قد رد على أولئك الذين أشاعوا الإشاعات الكاذبة عن القرآن الكريم، رددوا فيها ما فيها من الإقناع لكل ذى قلب سليم، وعقل قويم، بأن هذا القرآن من عند الله، وبأنه المعجزة الكبرى الخالدة التى تشهد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه.

جانب مما أشاعه المنكرون لليوم الآخر

- ١ -

الإيمان باليوم الآخر أو بيوم القيامة، وما فيه من بعث وحساب، ومن ثواب وعقاب: ركن من أركان الدين، وجزء من أجزاء العقيدة السليمة، ولا يكون الإنسان صحيح الإيمان، إلا إذا آمن إيمانا راسخا، وأيقن إيقانا تاما، بأن هذه الحياة الدنيا بما فيها وبمن فيها، ستنتهى فى الوقت الذى يريده الله - عز وجل -، وستعقبها حياة أخرى هى الحياة الباقية الدائمة، كما قال - سبحانه -: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

أى: إن هذه الحياة الدنيا وما فيها من مسرات وأحزان، تشبه فى سرعة انقضائها، وزوال متعها وشهواتها، تشبه الأشياء التى يلهو بها الأطفال، يجتمعون عليها وقتًا ما، ثم ينفضون عنها!!

أما الدار الآخرة، فهى دار الحياة الباقية الدائمة، التى لا يعقبها موت، ولا يعتريها فناء ولا انتهاء، فالمقصود بلفظ «الحيوان» فى الآية الكريمة: الحياة الدائمة التى لا زوال معها ولا انتهاء.

- ٢ -

والسؤال الآن: كيف هيأت شريعة الإسلام الأذهان والقلوب والمشاعر والعواطف، لقبول عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب، وما يترتب على هذا الحساب من سعادة أو شقاء؟

وكيف حاورت المنكرين لهذا اليوم، أو المشككين فى حدوثه؟ وكيف ردت على

شبهاتهم بأسلوب يقنع كل ذى عقل سليم؟ وكيف ساقت الأدلة الساطعة، والبراهين الواضحة، على أن هذا اليوم آت لا ريب فيه؟ وكيف غرست فى النفوس والعقول أن العدالة بكل صورها وألوانها، تستلزم حدوث هذا اليوم، حتى ينال كل مكلف ما يستحقه من ثواب أو عقاب؟ وكيف صورت أهواله بأسلوب مؤثر حكيم، يحمل العقلاء على حسن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح، والقول الحسن؟

-٣-

للإجابة على هذه الأسئلة نقول: لقد سلك القرآن الكريم طرقا شتى، وأساليب متعددة، لغرس عقيدة الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب فى القلوب.

وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة، ففصلت ما أجمله القرآن الكريم عن هذا اليوم الذى تعددت أسماؤه، وتنوعت أهواله، والذى هو من أمور الغيب التى نوقن بحدوثها، ونكل كيفيتها إلى علم الله - تعالى - وإلى ما أخبرنا به عن ربه الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم -.

ومن أهم هذه الطرق والأساليب التى اتبعها القرآن الكريم، لغرس عقيدة الإيمان بيوم القيامة ما يأتى:

-٤-

بين لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة مراحل خلق الإنسان منذ بدايته إلى نهايته فى هذه الدنيا، كما وضح لنا - أيضا - مصيره بعد نهاية هذه الدنيا.

ومن هذه الآيات قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنين: ١٢ - ١٦).

والسلالة : اسم لما سل من الشيء واستخرج منه . والنطفة : الماء القليل . والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ويصب فى رحم المرأة . والعلقة : عبارة عن الدم الجامد .

والمعنى : والله لقد خلقنا أباكم آدم - أيها الناس - من جزء مستخرج من الطين ، ثم خلقنا ذريته بقدرتنا من ماء يخرج من الرجل فيصب فى قرار مكين وهو رحم المرأة ، ثم صيرنا النطفة البيضاء علقة حمراء ، ثم جعلنا هذه العلقة قطعة من اللحم ، تشبه فى صغرها قطعة اللحم التى يمضغها الإنسان فى فمه ، ثم حولنا هذه المضغة من اللحم التى لم تظهر معالمها بعد إلى عظم صغير دقيق ، ثم كسونا هذا العظم لحما ساترا له ومحيطا به ، ثم صيرنا هذا الإنسان بشرا سويا ، بعد أن كان نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظاما ، فلحما يكسو هذه العظام ، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أى : فكثر خير الله - تعالى - ودام إحسانه ، فهو - سبحانه - أحسن الخالقين على الإطلاق . ثم إنكم - أيها الناس - مصيركم إلى الموت مهما طالت أعماركم ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب . وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة ، تذكر الإنسان بأطوار نشأته ، وبحلقات حياته ، وبنهاية عمره ، وبحتمية بعثه للحساب والجزاء .

وفى هذا التذكير ما فيه من الاعتبار للمعتبرين ، ومن الاتعاظ للمتعظين ، ومن البراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته التى لا يعجزها شىء فى هذا الكون .

- ٥ -

كذلك من أهم الوسائل التى غرسها الإسلام فى عقول الناس لكى يوقنوا بأن يوم القيامة حق ، وأنهم سيبعثون بعد موتهم للحساب والثواب والعقاب .

من أهم هذه الطرق والأساليب ، أن ساق لهم القرآن عن طريق المشاهدة ما يرونه بأعينهم ، من أن الأرض الجدباء تتحول بقدرته - تعالى - إلى أرض خضراء بسبب نزول الأمطار عليها .

والآيات القرآنية التى وردت فى هذا المعنى كثيرة ، ومنها : قوله - سبحانه - :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٧).

والمعنى: الله - تعالى - وحده هو الذى يسوق الرياح، مبشرات عباده بقرب نزول المطر الذى هو من أبرز مظاهر رحمة الله بخلقه، حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا من كثرة ما فيها من الماء، سقنا هذا السحاب إلى أرض لانبات فيها ولا مرعى، فاهتزت وربت وأخرجت النبات والمرعى، وأخرجت الثمرات المتنوعة التى تتناسب مع كل أرض ومع كل بيئة.

وقوله - سبحانه -: ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرته - عز وجل -.

أى: كما أحيينا الأرض بعد جدبها، وجعلناها زاخرة بأنواع الثمرات، بسبب نزول الماء عليها، نخرج الموتى من الأرض، ونبعثهم أحياء فى يوم القيامة لنحاسبهم على أعمالهم، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم، وهذا رد على منكرى البعث بدليل ملزم؛ لأن من قدر على إخراج النبات من الأرض بعد نزول المطر عليها، قادر - أيضا - على إخراج الموتى من قبورهم. فتذكروا يا أولى الألباب ذلك، لتزدادوا إيمانا على إيمانكم، ويقينا على يقينكم بأن يوم القيامة حق وصدق.

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: ٣٩).

أى: ومن الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى أن إحياء الموتى للحساب حق، أنك - أيها العاقل - ترى الأرض ﴿ خَاشِعَةً ﴾ أى: يابسة جامدة، فإذا أنزلنا عليها المطر ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أى: تحركت بالنبات قبل بروزه منها، وبعد ظهوره على سطحها، ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أى: وانتفخت وعلت؛ لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض ارتفعت له ثم تشققت عنه، إن الذى أحياها بنزول المطر عليها وبإخراج النبات

منها، لقادر على أن يعيد الحياة إلى الموتى، وعلى أن يبعثهم من مرقدهم، إنه - سبحانه - على كل شىء قدير.

وقوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (الزخرف: ١١) - أى: بمقدار معين - «فأنشرنا به بلدة ميتا» - أى: فأحيينا بهذا الماء بلدة مجدبة - ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ - أى: مثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها، تخرجون أنتم من قبوركم أحياء يوم القيامة.

وقال - سبحانه -: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف: ٣٣).

وهكذا يسوق القرآن الكريم الآيات المتعددة، التى توضح لكل عاقل، أن الله - تعالى - الذى أعاد للأرض اخضرارها بعد جدبها بسبب ما أنزله عليها من ماء، قادر على أن يعيد الحياة إلى الموتى ليحاسبهم على أعمالهم.

- ٦ -

ومن أجمع الآيات القرآنية على أن يوم القيامة حق، وعلى أن الله - تعالى - قادر على إعادة الحياة إلى الموتى: قوله - تعالى - فى سورة «الحج» الآيات (٥، ٦، ٧): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

والمعنى: يأيها الناس إن كنتم فى شك من أمر إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب يوم القيامة، فانظروا وتفكروا فى مبدأ خلقكم، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل هذا الشك؛ لأن الذى أوجدكم الإيجاد الأول، وخلقكم من التراب، قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى، إذ الإعادة - كما يعرف كل عاقل - أيسر من ابتداء الفعل.

وقوله - سبحانه -: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أى: من مضغة تامة الخلقة سالمة من العيوب، ومن مضغة ليست كذلك، لنبين لكم عن طريق المشاهدة ما يدل

على كمال قدرتنا، التى من مظاهرها - أيضا - أننا نثبت فى أرحام الأمهات ما نشاء إقراره وثبوته فيها من الأجنة إلى وقت معلوم.

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من أطوار خلق الإنسان فقال: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

أى: ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد استقراركم فيها أطفالا صغارا، ومنكم من يبلغ نهاية قوته من عمره، ومنكم من يموت قبل ذلك، ومنكم من يعيش إلى سن الشيخوخة التى هى أرذل العمر، والتى معها يكاد يزول علمه بالأشياء، ويضمحل فهمه للأمور.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بمظهر من مظاهر قدرته، وهو انتقال الأرض من حال إلى حال فقال: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ - أى: يابسة - ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على وحدانيته فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾.

أى: ذلك الذى ذكرناه لكم - أيها الناس - برهان قاطع على أن المستحق للعبادة إنما هو الله - تعالى - وحده؛ لأنه هو الخالق لكل شىء، ولأنه هو وحده الذى يعيد الموتى إلى الحياة.

واعلموا علما يقينيا أن يوم القيامة آت لا شك فى ذلك، وأن الله - تعالى - سيبعث من فى القبور، لكى يحاسبهم على أعمالهم، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

هذه بعض الآيات القرآنية التى ساقت ألوانا من الأدلة الواضحة، ومن البراهين الساطعة، على أن البعث حق وصدق وواقع، وعلى أن الله - تعالى - سيعيد الحياة إلى الناس يوم القيامة، لكى يحاسبهم على أعمالهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨).

جانب آخر مما أشاعه المنكرون لليوم الآخر

-١-

إن المتدبر للقرآن الكريم، يرى بوضوح أنه لا تكاد تخلو سورة من سوره، من الحديث عن اليوم الآخر وأحواله وأهواله، حتى السور التى هى من قصار المفصل، بل إن بعض السور القرآنية تحدثت عن اليوم الآخر، وعن إحياء الله - تعالى - للناس من قبورهم بعد موتهم للحساب والجزاء فى مواطن متعددة منها.

وذلك لأن الإيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب فى الآخرة، من الأمور التى لا يتم إيمان المرء إلا باعتقاد صحتها ووقوعها فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى -.

لقد تحدث القرآن الكريم باستفاضة عن أقوال المنكرين للبعث والحساب، والمشككين فى ثبوت ذلك، والمستهزئين بمن يؤمن بهذا اليوم الهائل الشديد، ورد عليهم بالبراهين الساطعة، وبالأدلة القاطعة، التى تثبت أن يوم القيامة حق، وأن إحياء الموتى للحساب صدق.

رد عليهم بأساليب متنوعة، منها ما يتعلق بإمكانية حدوث ذلك عقلا وشرعا، ومنها ما يتعلق بمراحل خلق الإنسان، ومنها ما يتعلق بأحوال الأرض التى نعيش فوقها - كما سبق أن أشرنا فى الصفحات الماضية -.

وسنكتفى هنا ببيان جانب من الآيات التى قصت علينا بعض أقوال المنكرين لليوم الآخر، ولإحياء الموتى للحساب والجزاء، وكيف رد القرآن عليهم بما يدحض شبهاتهم، وبما يبطل إشاعاتهم الكاذبة، وأراجيفهم الباطلة.

- ٢ -

لقد قص علينا القرآن الكريم أن بعض المنكرين لليوم الآخر، لم يكتفوا بهذا الإنكار، بل تطاولوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - وأساءوا إليه، فقال - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس: ٧٧ - ٨٣).

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات: أن أبى بن خلف، جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى يده بعض العظم البالى، فأخذ يفتته وينفخه فى وجه النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقول له: يا محمد، أتزعم أن إلهك يبعثنى بعد أن أصير مثل هذا العظم البالى؟!

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: «نعم يميتك الله - تعالى - ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار».

- ٣ -

والمعنى: أبلغ الجهل بهذا الإنسان، وأنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا من نطفة؟ لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك، ولكنه لانطماس بصيرته ولغروره بادر بالمبالغة فى الخصومة وفى سوء الأدب ولم يكتف بذلك، بل ضرب لنا مثلا يدل على جهله، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى، فقال - دون أن يفطن إلى أصل خلقته -: من الذى يستطيع أن يعيد الحياة إلى هذه العظام البالية؟

قل يا محمد لهذا الجاهل الجاحد لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها: الله - عز وجل - الذى أوجد هذه الأجسام من العدم، قادر على إعادتها إلى الحياة مرة أخرى بعد موتها.

ثم ساق ـ سبحانه ـ دليلا آخر على إمكانية إعادة الحياة إلى الموتى لحسابهم على أعمالهم فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

والمقصود بالشجر الأخضر هنا: الشجر الرطب، كشجر المَرْخ والعَفَار، وهما نباتان أخضران، إذا ضرب أحدهما بالآخر، اشتعلت منهما شرارات من النار بقدرة الله ـ تعالى ـ.

وفى المثل السائر: «لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار» أى: لكل شجر حظ من النار، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار: المرخ والعفار، فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الأشياء على بعض.

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى توبيخ هؤلاء المنكرين لليوم الآخر توبيخا آخر، حيث وضح أن من قدر على خلق السموات والأرض، قادر من باب أولى على إعادة خلق الإنسان الذى هو صغير الشكل، ضعيف القوة.

ثم أكد ـ سبحانه ـ شمول قدرته لكل شىء فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

أى: إنما شأنه ـ سبحانه ـ فى إيجاد الشىء، أنه إذا أراد إحداثه أن يقول له كن موجودا فيوجد فى الحال، فسبحان من هذا شأنه، تبارك الله رب العالمين.

ـ ٤ ـ

وقص علينا القرآن الكريم أن بعض المنكرين لليوم الآخر ولإعادة الناس إلى الحياة للحساب، قد استبعدوا وتعجبوا من أن يخبرهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك، حيث قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢).

أى: وقال الجاحدون للحق، والمرددون للإشاعات الكاذبة التى تنكر وحدانية الله - تعالى - وتنكر نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - وتنكر إعادة الحياة إلى الناس يوم الحساب.

قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - عندما دعاهم إلى الإيمان بالله - تعالى - وباليوم الآخر: يا محمد أتزعم أننا إذا صرنا عظاما بالية، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته، أئنا لراجعون إلى الحياة مرة أخرى؟

قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد عليهم بما يزيل جهلهم لو كانوا يعقلون: كونوا - إن استطعتم - حجارة كالتى تعبدونها، أو حديدا كالذى تستعملونه فى مصالحكم، أو كونوا أى شىء آخر مما يستبعد فى صدوركم المظلمة قبوله للحياة بعد الموت.

فسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - من الذى سيعيد إلينا الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرهما؟ قل لهم: الله - تعالى - الذى أوجدكم وخلقكم أول مرة على غير مثال سابق، قادر على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى.

وهنا يحكى القرآن ما كان من هؤلاء المعاندين المغرورين من سوء أدب فيقول: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؟!

أى: فسيحركون إليك - أيها الرسول الكريم - رءوسهم استهزاء وسخرية منك، ويقولون: متى هو ذلك اليوم الذى سنعود فيه إلى الحياة، بعد أن نصير عظاما ورفاتا؟

قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والوعيد، عسى هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله، أن يكون قريبا جدا وقوعه.

ولا شك فى أنه قريب؛ لأن لفظ «عسى» فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق الوقوع، وكل ما هو محقق الوقوع فهو قريب؛ ولأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قال فى حديثه الشريف: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى.

وقل لهم - أيها الرسول الكريم - أيضا -: «اذكروا أيها الجاهلون يوم يدعوكم

الداعى إلى البعث والنشور، فتلبون نداءه بسرعة وانقياد، حال كونكم حامدين الله ـ تعالى ـ على كمال قدرته، وناسين ما كنتم تزعمونه فى الدنيا من أنه لا بعث ولا حساب، وحال كونكم تظنون عند بعثكم أنكم ما قضيتم فى الدنيا أو فى قبوركم إلا زمنا قليلا.

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ (المؤمنون: ١١٢، ١١٣).

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ ـ أى: من القبور ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ـ أى: يسرعون ـ ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس: ٥١ ـ ٥٢).

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ ـ أى: يوم يرون قيام الساعة ـ ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: ٤٦).

ـ ٥ ـ

وقص علينا القرآن الكريم أن بعض المشركين كانوا يتغامزون ويتضاحكون فيما بينهم، إذا ما أخبرهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم سيعودون إلى الحياة بعد موتهم، ليحاسبهم خالقهم على أعمالهم.

ومن الآيات التى ساقت أقوالهم وردت عليهم قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ: ٧، ٨).

أى: وقال الكافرون فيما بينهم على سبيل الاستخفاف بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبدعوته: ألا تريدون أن نرشدكم إلى رجل، هذا الرجل يخبركم ويحدثكم بأنكم إذا متم وتفرقت أجسادكم فى الأرض، وصرتم ترابا أو طعاما فى بطون

الطيور والوحوش، إنكم بعد هذا التمزيق والتفريق، تعودون إلى الحياة مرة أخرى للحساب على أعمالكم التى عملتموها فى حياتكم؟

وقالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وهو - صلى الله عليه وسلم - أشهر من نار على علم بينهم، لقصد تجاهل أمره، والاستخفاف بشأنه، والاستهزاء بدعوته.

وقوله - سبحانه - بعد ذلك: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة، ومن شائعاتهم الكاذبة، التى نشروها على الناس للإساءة إلى دعوته - صلى الله عليه وسلم.

أى: أنهم يزعمون أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، إلا لأنه يتعمد الكذب، أو لأنه قد أصيب بالجنون الذى أفقده رشده!!

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما ينفى عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - ما اتهموه به، وبما يثبت جهلهم وغباءهم فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ﴾.

أى: ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون، من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أخبرهم بأن هناك بعثا وحسابا، به جنون أو افترى على الله الكذب، بل الحق أن هؤلاء الكافرين الذى لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، هم الغارقون فى الجهل وفى ا لعذاب الذى لا نهاية له، وفى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد.

والخلاصة أن القرآن الكريم قد قص علينا فى عشرات الآيات، ما أشاعه المشركون من إشاعات كاذبة عن اليوم الآخر، وعن إعادة الحياة إلى الموتى للحساب والجزاء، ورد على هذه الإشاعات والأراجيف بالردود المناسبة التى تقنع كل ذى عقل سليم.

جانب ثالث مما أشاعه المنكرون لليوم الآخر

-١-

هناك فضائل يرثها الخلف عن السلف، وهناك رذائل يرثها اللاحقون عن السابقين، ومن الرذائل التى ورثها اللاحقون عن السابقين: إنكار اليوم الآخر، وإنكار إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم، لمساءلتهم عن أعمالهم فى الدنيا.

ومن الأدلة على ذلك: أن قوم هود - عليه السلام - الذين جاءوا بعد قوم نوح - عليه السلام - ساروا على طريقة من سبقوهم فى إنكار يوم القيامة، وفى التواصى بتكذيب نبيهم هود - عليه السلام - فقد قالوا - كما حكى القرآن عنهم -: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٣٤-٤١).

-٢-

أى: قال قوم هود - عليه السلام - فيما بينهم على سبيل الاستهزاء والتكذيب لنبيهم: إنكم لو أطعتم هودا فيما يدعوكم إليه لصرتم من الخاسرين؛ لأنه يخبركم بأنكم إذا فارقتم هذه الحياة وصرتم أمواتا، وصارت أجسادكم عظاما بالية، أنكم مخرجون من قبوركم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء.

ثم وضح ـ سبحانه ـ أن هؤلاء الطغاة لم يكتفوا بما أثاروه من شبه لصرف أتباعهم عن الحق، بل أضافوا إلى ذلك أن ما قاله نبيهم هو من الأمور المستحيلة، وأنه رجل كذاب فقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

أي: بعدا كبيرا وبعدا كبيرا لما يقوله هذا الرجل، ولما يعدكم به، فنحن فى هذه الدنيا نعيش، ثم بعد ذلك نموت، وليس هناك من بعث أو حساب كما يزعم هذا الرجل الذى يتعمد الكذب، والذى من المستحيل أن نصدقه فيما يقول.

وهنا يلجأ هود ـ عليه السلام ـ إلى خالقه، يلتمس منه النصر على هؤلاء الطغاة فيقول: يارب انصرنى على هؤلاء المنكرين لكل ما هو حق.

وأجاب الله ـ تعالى ـ دعوته وقال له: يا هود لقد أجبنا دعاءك، وبعد وقت قليل من الزمان، ليصبحن نادمين أشد الندم على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، ولكن هذا الندم لن ينفعهم لأنه قد جاء فى غير أوانه، وجاءهم العذاب بسرعة، فقد نزلت عليهم الصحية التى أهلكتهم وجعلتهم كأوراق الشجر، فهلاكا وسحقا لهؤلاء القوم الظالمين.

ـ٣ـ

والمنكرون ليوم القيامة فى العهد النبوى، لم يكتفوا بالتطاول على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدعوته إياهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وإلى إيمانهم باليوم الآخر وما فيه من حساب، بل سلكوا مسالك أخرى فى الإنكار وفى الإشاعات الكاذبة التى نشروها لصرف الناس عن مجرد التفكير فى اليوم الآخر وأهواله.

ومن هذه المسالك أن كبار المشركين أقسموا لصغارهم، أن ما يقوله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن هناك إحياء للموتى يوم القيامة لمحاسبتهم على أعمالهم لا صحة له.

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يوضح ذلك فيقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ

لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٣٨ـ ٤٠).

ـ ٤ ـ

والقسم: الحَلف. وسمى القسم حلفا، لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب.

والجهد: المشقة، والمقصود بقوله ـ تعالى ـ: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق على أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت؛ لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما بالية، أمر مستحيل.

وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم، للتدليل على أنهم متثبتين مما يقولونه، ومتيقنين من صحة ما يزعمونه، من أنه لا يبعث الله من يموت.

قال الإمام القرطبى ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله، وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت. ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله ـ تعالى ـ عن طريق الحلف به، ثم بعد ذلك يزعمون عجزه عن إحياء الموتى.

وفى صحيح البخارى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «قال الله ـ عز وجل ـ: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك!! فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد».

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ رد عليهم فيما تفوهوا به، وتكذيب لهم فيما أقسموا عليه.

أى: إن الله ـ تعالى ـ سيبعث الأموات يوم القيامة، وقد وعد بذلك وعدا

صدقا، لا خلف فيه ولا تبديل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة لجهلهم بكمال قدرة الله، وسمو حكمته.

وفى التنصيص على أكثر الناس: مدح للأقلية منهم، الذين آمنوا بوحدانية الله، وأيقنوا بأن يوم القيامة حق.

-٥-

ثم بين - سبحانه - الحكمة من بعث الناس يوم القيامة فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

أى: إن الله - تعالى - سيبعث الناس بعد موتهم يوم القيامة، ليظهر لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه، ولكى يعلم المنكرون لليوم الآخر أنهم كانوا كاذبين فى هذا الإنكار، وفى حلفهم أن الله لا يبعث من يموت فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لإحياء الموتى يوم القيامة للحساب، الأولى: إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره مما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

والثانية: إظهار كذبهم حيث أنكروا الحساب والثواب والعقاب يوم القيامة، وأقسموا بأن الله لا يبعث من يموت.

ثم أكد - سبحانه - قدرته النافذة وشمولها لكل شىء فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

-٦-

وإذا كان المشركون قد أقسموا بالله جهد أيمانهم بأنه - سبحانه - لا يبعث من يموت، فإنه - عز وجل - فى ثلاث آيات قد أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقسم لهم بأن يوم القيامة حق، وأن البعث حق، وأن الحساب حق...

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (سبأ: ٣).

أي: قل لهم يا محمد وحق ربى الذى أوجدنى وأوجدكم لتأتينكم الساعة التى تبعثون فيها من قبوركم، هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن، مما أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد.

والثانية قوله - تعالى -: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (يونس: ٥٣).

أي: ويطلب منك الكافرون أن تخبرهم هل يوم القيامة حق؟ قل لهم - يامحمد -: وحق ربى إنه لحق، وما أنتم بهاربين من عذاب الله.

والثالثة قوله - تعالى -: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن: ٧).

أي: قل لهم - أيها الرسول الكريم - والله لتبعثن يوم القيامة، ثم لتحاسبن على أعمالكم فى الدنيا، وذلك الحساب أمر سهل على الله - تعالى - لأنه - عز وجل - لا يعجزه شيء.

وهكذا أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على هؤلاء المنكرين لليوم الآخر، بما يخرس ألسنتهم، ويبطل أقوالهم.

- ٧ -

ومن الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الفاسدة، التى كررها المنكرون لليوم الآخر: زعمهم أنه من باب الأساطير والخرافات التى لا صحة لها، وقد رد القرآن عليهم بما يكشف عن جهلهم وانطماس بصائرهم.

ومن الآيات القرآنية التى وردت فى ذلك قوله - تعالى -: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٨١-٨٣).

أى: إن هؤلاء المنكرين ليوم القيامة قد كرروا ما قاله من سبقوهم فى الكفر والعناد، فقد زعموا أنهم لن يعادوا إلى الحياة بعد موتهم، ولم يكتفوا بذلك، بل أضافوا إلى جحودهم للحق سوء الأدب، والسخرية من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أصحابه فقالوا: إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد وعدنا وأخبرنا بأن يوم القيامة حق، والرسل السابقون قد فعلوا ذلك مع آبائنا، ونحن لا نؤمن بما أخبرنا به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا بما قاله الرسل من قبله، وإن الحديث عن يوم القيامة ما هو إلا من الخرافات ومن الأكاذيب التى لا نصدقها.

وهكذا الجهلاء المغرورون، لا يقفون من الحق موقف المنكر له فحسب، بل يضيفون إلى ذلك سوء الأدب، وقبح المنطق، والقول بغير علم.

ـ ٨ ـ

وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد على أباطيلهم وعلى إشاعاتهم الكاذبة، بثلاث حجج، تدل على أن الله ـ تعالى ـ قادر على إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم.

أما الحجة الأولى فتتجلى فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٤).

أى: قل لهم يا محمد لمن هذه الأرض ملكا وتصرفا، ولمن هذه المخلوقات التى عليها خلقا وتدبيرا إن كنتم من أهل العلم والفهم؟

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أى: سيردون عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ بقولهم: الأرض ومن فيها ملك الله ـ تعالى ـ ولا يملكون أن يقولوا غير ذلك، لأن بداهة العقل تضطرهم أن يعترفوا بأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق لكل شىء.

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى: قل لهم يا محمد فى الجواب على اعترافهم هذا، أتعلمون ذلك فلا تتذكرون بأن من خلق الأرض ومن فيها، قادر على إحياء الناس من قبورهم؟

وأما الحجة الثانية فهى قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون : ٨٦ ، ٨٧) .

أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - من الذى خلق السموات السبع وخلق العرش العظيم؟ سيقولون الله الذى أوجد كل ذلك ، قل لهم : وما دمتم قد اعترفتم بأن الله - تعالى - هو رب السموات السبع ورب ا لعرش العظيم فلماذا تستبعدون البعث والحساب؟!

وأما الحجة الثالثة فتتجلى فى قوله - سبحانه - : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : بقدرته ملك كل شىء .

﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أى : وهو يجير من استجار به ، ولا يقدر أحد أن يجير أو يحمى من أراد الله إهلاكه .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إن كنتم من أهل العلم والفهم فأجيبونى على أسئلتى؟

﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أى : سيقولون الخالق والمالك لكل ذلك هو الله ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد فى الجواب عليهم : ما دمتم قد اعترفتم بأن كل شىء تحت قدرة الله وسيطرته ، فكيف تتركون الحق وتتبعون الباطل ، وكيف خدعكم الشيطان فجعلكم تنصرفون عن النور إلى الظلمات؟!

وبهذه الحجج الدامغة ، أخرس الله ألسنة المنكرين لليوم الآخر وما فيه من حساب ، ومن ثواب وعقاب ، ومن جنة ونار ، وأثبت - سبحانه - أن يوم القيامة لا ريب فيه ، وأنه - سبحانه - قادر على كل شىء .

﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

من ثمرات الإيمان باليوم الآخر

- ١ -

من الأساليب الحكيمة التى استعملها القرآن الكريم لإحقاق الحق وإبطال الباطل : أنه يسوق شبهات أعدائه وإشاعاتهم الكاذبة كما تفوهوا بها ، ثم يرد عليها بالرد الحاسم الذى يقطع دابرها ، ويقنع كل ذى عقل سليم .

ومن الأدلة على ذلك أنه حكى أقوال المنكرين لليوم الآخر وما فيه من حساب ، فى عشرات الآيات ، ثم فند هذه الأقوال ، ورد على أصحابها بما يحملهم على اتباع الحق لو كانوا يعقلون .

ويبدو أن الجدال والخصام فيما يتعلق بمسألة بعث الموتى من قبورهم للحساب يوم القيامة ، قد اشتد واتسع فى العهد النبوى ، حتى وصل إلى الآباء والأبناء .

واستمع إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الأحقاف : ١٧) .

أى : واذكر - أيها العاقل - حال ذلك الابن الشقى الذى قال لوالديه عندما نصحاه بالإيمان بالله واليوم الآخر ، قال لهم : «أف لكما» أى : كرها وقبحا لكما ، أتخبرانى بأنى سأخرج من قبرى حيا بعد أن أموت ، لكى أبعث وأحاسب على عملى يوم القيامة ، والحال أنه قد مضت القرون الكثيرة من قبلى ، دون أن يخرج أحد منهم من قبره ، ودون أن يرجع إلى الحياة بعد أن مات ! !

فالآية الكريمة تقص علينا ما كان عليه هذا الابن العاق ، من سوء أدب مع أبويه ، ومن إنكار صريح للبعث والحساب والجزاء .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما رد به الأبوان على ولدهما فقال: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

أى: هذا هو حال هذا الابن العاق، أما أبواه فإنهما فزعا لما قاله لهما، وارتعشت أفئدتهما لهذا التطاول من ابنهما على الحق، والتجأ إلى الله يتضرعان إليه ـ سبحانه ـ ليهدى ابنهما إلى الصراط المستقيم، ويقولان لابنهما بتهديد وحزن «ويلك آمن» بأن الله واحد لا شريك له، وبأن يوم القيامة وما فيه من حساب حق وصدق.

والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة، يراها تصور أكمل تصوير، لهفة الوالدين وحرصهما على إيمان ولدهما، فهما يلتمسان من الله ـ تعالى ـ لابنهما الهداية، ثم يهتفان بهذا الابن العاق بفزع أن يترك هذا الجحود، وأن يبادر إلى اتباع الحق.

ولكن الابن العاق، يصر على كفره، فيقول فى الرد على أبويه: ما هذا الذى تخبرانى إياه من أن البعث والحساب والرجوع إلى الحياة بعد الموت، إلا من خرافات الأولين التى سطروها فى كتبهم.

وقد توعد الله ـ تعالى ـ هذا الابن العاق للحق، كما توعد أشباهه من الجاحدين، بأشد أنواع العذاب فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (الأحقاف: ١٨).

ـ ٢ ـ

ومن الإجابات السديدة، والردود الحكيمة، التى رد بها القرآن الكريم على شبهات المنكرين لليوم الآخر، وعلى الإشاعات الكاذبة التى أشاعوها عن البعث والحساب يوم القيامة.

من هذه الإجابات والردود: تأكيد أن الله ـ تعالى ـ الذى أوجد الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد موته.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الروم: ٢٧).

أى: وهو وحده ـ سبحانه ـ الذى يخلق المخلوقات من العدم، ثم يعيدها إلى الحياة مرة أخرى فى الوقت الذى يريده، وهذه الإعادة للأموات أهون عليه، أى: أسهل عليه من البدء، وهذه الأسهلية إنما هى على طريقة التمثيل والتقريب، بما هو معروف بين الناس من أن إعادة الشىء من مادته الأولى، أسهل من ابتدائه.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال: «قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أى: فيما يعرف عندكم، وينقاس على أصولكم، ويقتضيه معقولكم؛ لأن من أعاد منكم صنعة شىء، كانت أسهل عليه من إنشائها»

وهو ـ سبحانه ـ له الوصف الأعلى الذى ليس لغيره مثله، وهو العزيز الذى لا يغلب، الحكيم فى أقواله وأفعاله.

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية فى تأكيد قدرة الله ـ تعالى ـ على إحياء الموتى من قبورهم يوم القيامة للحساب، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٦ ـ ٦٧). وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الروم: ١١).

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان: ٢٨).

وفى الحديث الشريف عن أبى رزين العقلى قال: قلت: يا رسول الله، كيف يعيد الله الخلق إلى الحياة؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أما مررت بوادى قومك جدبًا ـ أى: أرضا يابسة لا نبات فيها ـ؟ ثم مررت به خضرا؟» قلت: نعم. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «فتلك آية الله فى خلقه، كذلك يحيى الله الموتى».

والحق أنه ما أكثر الأدلة العقلية والنقلية التى ساقها القرآن الكريم لتأكيد أن البعث حق، وأن الحساب حق.

-٣-

وقد يسأل سائل: هل الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب يتعارض مع تعمير الحياة الدنيا بما أحله الله - تعالى - من الطيبات؟

والجواب: مع أن الله - تعالى - قد بين للناس فى عشرات الآيات، أن هذه الدنيا مصيرها إلى الزوال، وأن الدار الآخرة هى الدار التى حياتها باقية ودائمة، إلا أنه - سبحانه - قد أمرنا أن نعمر دنيانا بالأقوال الطيبة، وبالأعمال الصالحة، عن طريق التجارة أو الزراعة أو الصناعة، أو غير ذلك من ألوان تبادل المنافع بين الناس فى حدود ما أحله الله - تعالى - لأن هذه الدنيا قد أوجدنا - سبحانه - فيها لتعميرها لا لتخريبها، ولإصلاحها لا لإفسادها، وهذا ما أعلنه كل نبى لقومه.

فهذا على سبيل المثال - سيدنا صالح - عليه السلام - يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

أى: أوجدكم من هذه الأرض فكونوا معمرين لها لا مخربين.

ونراه فى موطن آخر يقول لهم: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء: ١٥١، ١٥٢).

ومن أجمع الآيات القرآنية التي أرشدت الناس إلى ما يجب عليهم أن يعملوه، قوله - تعالى -: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

وما أكثر الأحاديث النبوية التى تدعو المسلم إلى تعمير هذه الحياة الدنيا بكل ما أحله الله - تعالى - من طيبات.

ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - فى حديثه الصحيح: «ما من مسلم يزرع زرعا، أو يغرس غرسا، فيأكل منه طير أو إنسان أو حيوان، إلا كان له به صدقة».

وفى حديث آخر يقول - صلى الله عليه وسلم -: «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة - أى: نخلة صغيرة - فليغرسها».

والخلاصة: أن اعترافنا بأن الحياة مهما طالت لها نهاية، وأن إيماننا العميق باليوم

الآخر وما فيه من حساب وجزاء، كل ذلك لا يمنع كل من يعيش فى هذه الدنيا أن يعمل على تعميرها، بالإيمان الصادق، وبالعمل الصالح، وبالسلوك الحميد؛ لأن ذلك هو طريق سعادته فى دنياه وآخرته، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

ـ ٤ ـ

ولقد وضح لنا القرآن الكريم فى آيات متعددة، أن الإنسان لا يكاد يفارق هذه الحياة بعد انتهاء أجله فيها، حتى يبدأ حسابه، ويظهر ثوابه أو عقابه، فالسعداء يبدءون حياة جديدة فيها كل ألوان النعيم، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) أما الأشقياء فيبدءون حياة أخرى تعيسة، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦).

بل إن السعداء الأتقياء الأنقياء، يرون بشارات الخير تساق إليهم وهم فى اللحظات الأخيرة من حياتهم، ويؤيد ذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

أى: إن الذين أخلصوا لله وحده عبادتهم، واستقاموا على طريق الحق، تتنزل عليهم الملائكة لتقول لهم وهم فى اللحظات الأخيرة من حياتهم: لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه فى المستقبل، ولا تحزنوا لفراقكم لمن تحبونه، وأبشروا بالجنة التى وعدكم خالقكم بها.

أما الأشقياء الأشرار، فنذر العذاب تواجههم وهم فى النزع الأخير من حياتهم، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ

بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٩٣).

هذا، والأدلة على ثواب القبر وعذابه كثيرة، وهى تؤيد وتؤكد أن قبل الجنة والنار مقدمات تزخر بالبشرى، أو تطفح بالإنذار، وفى الحديث الشريف قال - صلى الله عليه وسلم -: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى. إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

- ٥ -

ألا وإن إيماننا العميق بأن الساعة آتية لا ريب فيها، كما قال - سبحانه -: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج: ٦ - ٧).

أقول: إن إيماننا بكل ذلك، يجب أنْ يتبعه أنَّ وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده، ومن الآيات الكريمة التى أكدت هذه الحقيقة قوله - تعالى -: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

أى: يسألك بعض الناس - أيها الرسول الكريم - سؤال استنكار واستخفاف، عن وقت قيام الساعة، وعن وقت قيام الناس من قبورهم للحساب، قل لهم: علم قيامها لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده، ولا يكشف خفاءها إلا هو - عز وجل -.

ثم عظم - سبحانه - أمر قيام الساعة فقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. أى: كبرت وشقت على أهلها، لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة، وهى لا تأتى إلا فجأة وبغتة.

وقد وردت أحاديث متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة ومنها: ما جاء فى

الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه».

ثم أكد ـ سبحانه ـ أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو وحده فقال: «يسألونك كأنك حفى عنها» أى: كأنك عالم بها مع أنك لا علم لك بها ولا بوقت قيامها، والحق أن علم قيامها مفوض إلى الله ـ تعالى ـ دون سواه ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولقد ثبت فى الصحيحين أن جبريل ـ عليه السلام ـ سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن وقت قيام الساعة فأجابه بقوله: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

ـ٦ـ

والخلاصة أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب ركن من أركان الإيمان، وإذا كان الإيمان بوحدانية الله ـ تعالى ـ يحقق المعرفة بخالق هذا الكون، فإن الإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذى ينتهى إلى هذا الكون. والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب، هو خير دافع للإنسان لكى يؤدى ما كلفه الله ـ تعالى ـ به بإخلاص ونشاط.

ولقد ساق القرآن الكريم من الشبهات ومن الإشاعات الكاذبة التى تفوه بها المنكرون لهذا اليوم، ورد عليها بأسلوب منطقى حكيم، يقنع كل ذى عقل سليم، بأن اليوم الآخر حق، وبأن إعادة الناس إلى الحياة للحساب حق.

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يقول: «والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن على ما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا».

جانب من الآثار السيئة للإشاعات الكاذبة

-١-

إن الذى يستعرض الأحداث التى مرت بها الإنسانية فى تاريخها الطويل، يدرك أن من أعظمها خطرا، ومن أشدها ضررا، تصديق الشائعات التى ينشرها الذين يقصدون إلحاق الأذى والضرر والخسران بغيرهم. ويكفى للدلالة على ذلك، أن إبليس ـ الذى هو عدو للإنسان ـ مازال يشيع الأكاذيب لآدم ـ عليه السلام ـ حول الشجرة التى أمره الله ـ تعالى ـ بالابتعاد عنها، حتى أكل منها، فكانت نتيجة ذلك الخروج من الجنة، بسبب معصيته لأمر ربه.

ولقد حكى القرآن هذه الوسوسة من إبليس لآدم فى مواطن متعددة، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٢٥ ـ ٣٦).

ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ (الأعراف: ١٩ ـ ٢٢).

-٢-

وإذا كان تصديق الشائعات له آثاره السيئة فى كل الأحوال، فإن هذا التصديق لتلك الشائعات فى حال الحروب بصفة خاصة، قد يؤدى إلى تحويل النصر إلى هزيمة، كما يؤدى إلى الاضطراب والفشل والخسران فى صفوف المقاتلين وغيرهم.

وما حدث ـ على سبيل المثال ـ فى غزوة «أحد» قد يكون دليلا على ما نقول، فقد انتشرت خلال هذه الغزوة إشاعتان، كان لهما أسوأ الأثر فى النفوس، وهاتان الشائعتان سنذكرهما بعد عرض مجمل لأسباب وأحداث ونتائج هذه الغزوة فنقول:

لقد كانت غزوة «أحد» فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وكانت قد سبقتها غزوة «بدر» التى حدثت فى السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وفى غزوة «بدر» كانت الهزيمة الساحقة للمشركين، وكان النصر المظفر للمؤمنين، حيث قتلوا من مشركى قريش سبعين رجلا، وأسروا ما يقرب من هذا العدد.

وأخذ المشركون منذ انتهاء غزوة «بدر» يرصدون الأموال، ويعبئون القوى، ويجمعون السلاح، ويستنصرون بحلفائهم للأخذ بثأرهم من المسلمين، فخرجوا بعد سنة تقريبا من غزوة بدر، فى ثلاثة آلاف من رجالهم ومن حلفائهم، وتوجهوا إلى المدينة المنورة فى حماسة الموتور، وفى سورة المغيظ المحنق، ليشفوا صدورهم من المؤمنين الذين دحروهم فى غزوة «بدر».

-٣-

وبلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعله المشركون بقيادة أبى سفيان ـ وكان مازال على دين قومه ـ، فاستشار أصحابه فى شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة المنورة، فكان من رأى الشباب الخروج لملاقاة أعدائهم خارج المدينة، وألا ينتظروا حتى يقتربوا منها، وكان منهم من قال: اخرج بنا يا رسول الله إلى أعدائنا، فإننا نكره يا رسول الله، أن يعود مشركو قريش إلى حلفائهم لكى يقولوا: جبن المسلمون عن الخروج إلينا . . .

وقال حمزة بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ: «يا رسول الله، والذى أنزل عليك الكتاب، لاأطعم طعاما اليوم، حتى أجالدهم بسيفى هذا خارج المدينة»

وكان من رأى غير الشباب: أن يبقى المسلمون داخل المدينة، فإذا ما وصل المشركون إليها وحاولوا دخولها، قاتلهم الرجال بالسيوف، وقاتلهم الصبيان والنساء بالحجارة، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا كانوا بشر محبس، وإن رجعوا عادوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيرا. . .

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يميل إلى هذا الرأى، إلا أنه عندما رأى أن الكثرة من أصحابه تدعو إلى الخروج إلى مشركى قريش، استجاب لهذه الكثرة، ثم دخل بيته، ولبس آلة حربه، وأحس بعض المسلمين أنهم قد استكرهوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على القتال، فأظهروا الرغبة فى ا لنزول على رأيه، إلا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يستجب لهم، وقال كلمته التى علمت أتباعه الحزم وعدم التردد: «ما ينبغى لنبى لبس آلة حربه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه!! لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس».

ـ ٤ ـ

ثم خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ لملاقاة المشركين ومعه ألف مقاتل من أصحابه، حتى نزل قريبا من جبل «أحد» ونظم صفوفهم بأن جعل ظهورهم ناحية الجبل، ورسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطة الحرب فجاءت خطة محكمة، فقد اختار خمسين من الذين يحسنون الرمى بالسهام، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير، وأمرهم أن يعسكروا فوق الجبل ليحموا المسلمين من الخلف إذا ما حاول مشركو قريش مهاجمة المسلمين من تلك الجهة.

وكان مما قاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم: «أيها الرماه: احموا لنا ظهورنا، وإذا أتى أعداؤنا من خلفنا فارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل. إننا لا نزال غالبين ما دمتم ثابتين فى أماكنكم!! وإن رأيتم الطير تتخطفنا فلا تبرحوا أماكنكم

حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا قد قهرنا القوم فلا تبرحوا أماكنكم حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا، وأن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا، ولا تدفعوا عنا.. ثم ختم كلامه - صلى الله عليه وسلم - لهؤلاء الرماة بقوله: «اللهم إنى أشهدك عليهم»!!

وكأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يشعر أن بعض النفوس قد تتطلع إلى الغنائم، فخطب خطبة بليغة حكيمة فى أصحابه قبل أن تبدأ المعركة، جاء فيها: «أيها الناس، إن جهاد العدو شديد كربه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله له رشده، فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصى الله».

ثم قال - صلى ا لله عليه وسلم -: «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفسى حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم استبطاء طلب الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله».

وهكذا أكد الرسول - صلى الله عليه وسلم - للرماة تأكيدا لا مزيد عليه، ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت الظروف والأحوال، إلا بإذن منه - صلى الله عليه وسلم -.

- ٥ -

وأخيرا التقى الجمعان، وأذن النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه أن يجالدوا أعداءهم، وأظهر المسلمون من صور البطولة والإقدام ما أرهب المشركين، وما هى إلا جولات فى أوائل المعركة حتى ولى المشركون الأدبار، وتركوا من خلفهم أمتعتهم، ولم يغن عنهم شيئا ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض ومن استنهاض للعزائم...

ورأى الرماة الهزيمة للمشركين، فتطلعت نفوسهم للغنائم، وسرت بينهم شائعة ملخصها: أن قال بعضهم البعض هيا بنا لننزل إلى أرض المعركة لنشارك غيرنا فى جمع الغنائم، وحاول أميرهم عبد الله بن جبير، أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملا

بوصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم، ونزلوا ساحة المعركة ليشاركوا فى جمع الغنائم والأسلاب.

وأدرك خالد بن الوليد ـ وكان مازال مشركا ـ أدرك أن ظهور المسلمين قد انكشفت بعد أن كانت محمية بهؤلاء الرماة، وكان لا يستطيع الاقتراب منهم، فاهتبل الفرصة على عجل، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحدق بهم بعد أن قتل من بقى من الرماة، وأخذ فى مهاجمة المسلمين من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه، فقد كانوا يعتمدون على الرماة فى حماية ظهورهم!!

وعاد المشركون المنهزمون إلى قتال المسلمين، بعد أن رأوا ما فعله خالد ومن معه، واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجئ الذى حدث لهم، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر.

-٦-

وهذه الشائعة الكاذبة التى سرت بين الرماة بأن المعركة قد انتهت، جعلتهم يتركون أماكنهم، وينزلون إلى ساحة المعركة ليجمعوا الغنائم، فترتب على ذلك اضطراب صفوف المسلمين، واستشهاد عدد كبير منهم. وهذه الشائعة قد أشار إليها القرآن فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية، أن بعض المسلمين بعد أن انتهت غزوة «أحد» قالوا فيما بينهم: كيف يحدث لنا هذا ونحن مؤمنون، وأعداؤنا كافرون؟ فنزلت هذه الآية.

والمعنى: ولقد حقق الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ وعده إياكم بالنصر فى أول المعركة عندما قاتلتم أعداءكم بإيمان صادق، وبإخلاص لله ـ تعالى ـ، حتى إذا سرت بين

الرماة إشاعات بأن المعركة قد انتهت بانتصاركم، وتركوا أماكنهم، وعصوا رسولهم من بعدما أراكم الله وأراهم النصر فى أول المعركة، وكان منكم ومنهم من أراد بقتاله الدنيا، ومنكم ومنهم من أراد بقتاله إعلاء كلمة الله - تعالى - عندما حدث منكم كل ذلك منع - سبحانه - نصره عنكم امتحانا واختبارا لكم، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه، والله - عز وجل - ذو فضل عظيم على عباده المؤمنين الصادقين.

-٧-

أما الإشاعة الكاذبة الثانية، فكانت أقبح من سابقتها، فقد أشيع خلال اضطراب صفوف المسلمين، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل، وقد كان لهذه الشائعة أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين.

وسبب هذه الإشاعة الكاذبة أن واحدا من المشركين يدعى «ابن قميئة»، اعتدى على النبى - صلى الله عليه وسلم - خلال اضطراب صفوف المسلمين، بأن ضربه على عاتقه ضربة شديدة، ثم أخذ يصيح فى الناس قتلت محمدا - صلى الله عليه وسلم -.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الإشاعة خلال حديثه الطويل عن غزوة أحد، والذى استغرق ما يقرب من ستين آية من سورة «آل عمران»، أشار - سبحانه - إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل، منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدا قد قتل!! ورجع «ابن قميئة» إلى المشركين وقال لهم: قتلت محمدا، وإنما هو قد ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشجه فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففى ذلك أنزل الله - تعالى - هذه الآية الكريمة».

والحق أن هاتين الشائعتين الكاذبتين كان لهما أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين، إذ ترتب عليهما ما ترتب من اضطراب فى صفوفهم، ومن حزن فى قلوبهم، ومن استشهاد لسبعين من خيارهم، إلا أن كثيرا منهم ظل على صدق إيمانه، وعلى وفائه التام لدينه، وعلى حبه الصادق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعلى ثباته على العهد الذى قطعه على نفسه بأن يدافع عن عقيدته إلى آخر رمق من حياته، وفى هؤلاء نزل قوله - تعالى -: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣).

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا منهم.

جانب آخر من الآثار السيئة للإشاعات الكاذبة

-١-

ذكرنا فيما سبق شائعتين خبيثتين انتشرتا خلال غزوة «أحد»، إحداهما: سرت بين الرماة الذين أمرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكونوا فوق الجبل لحماية المسلمين من الخلف، وكان من بين ما قاله لهم: «لا تبرحوا أماكنكم وإن رأيتم الطير تتخطفنا!! احموا لنا ظهورنا، إننا مازلنا غالبين ما دمتم فى أماكنكم، انضحوا خيل المشركين إذا أتونا من الخلف، ولا تبرحوا أماكنكم حتى أرسل إليكم».

ولكن معظم الرماة تركوا أماكنهم عندما سرت بينهم شائعة بأن المعركة قد انتهت بانتصار المسلمين، فتركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا فى جمع الغنائم، فانتهز بعض المشركين الفرصة، وانقضوا على المسلمين من الخلف، فكان ما كان من مصائب حلت بالمسلمين.

وأما الشائعة الثانية فقد انتشرت بعد أن اضطربت صفوف المسلمين، وسرت بينهم شائعة تقول: إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل، وأن الذى قتله هو «ابن قميئة»، فإن هذا المشرك بعد أن قتل «مصعب بن عمير» حامل لواء المسلمين فى غزوة «أحد»، أخذ يصيح بأعلى صوته: قتلت محمدا - صلى الله عليه وسلم - ومما لا شك فيه أن هاتين الشائعتين كان لهما أسوأ الآثار فى ارتباك صفوف المسلمين، وفى نتائج معركة أحد، التى استشهد فيها ما يقرب من سبعين من المسلمين.

-٢-

ولقد تعجب بعض الصحابة مما أصابهم فى غزوة «أحد» من شدائد وقالوا فيما بينهم : كيف يحدث لنا كل ذلك ونحن مؤمنون وأعداؤنا مشركون؟ فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

والهمزة فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَ لَمَّا﴾ للاستفهام الإنكارى التعجبى . والواو : للعطف على كلام محذوف . ولما : ظرف زمان بمعنى حين . ولفظ المصيبة معناه فى اللغة : الرمية التى تصيب الهدف ولا تخطئه ، ثم أطلقت على ما يصيب الإنسان فى نفسه أو فى أهله أو فى أمواله أو فيما يحبه من أضرار .

والمعنى : أفعلتم ما فعلتم ـ أيها المؤمنون ـ من أخطاء فى غزوة «أحد» ، وحين أصابكم من المشركين فى غزوة أحد نصف ما أصابهم منكم فى غزوة «بدر» تعجبتم وقلتم كيف يحدث لنا هذا؟

قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ: ما أصابكم هو من عند أنفسكم بسبب تصديق الرماة للشائعات الكاذبة ، ومخالفتهم لوصاياك التى وصيتهم بها ، وقل لهم كذلك : إن الأخطاء قد يرتكبها البعض ، فتكون آثارها السيئة على الكل ، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال : ٢٥) .

فالآية الكريمة درس عظيم لمن يهمل فى مباشرة أسباب النصر ، ثم يتعجب إذا حلت به الهزيمة ! !

-٣-

وإذا ما استعرضنا جانبا من الأحداث التى مرت بالإنسانية ، وجدنا أن الإشاعات الكاذبة ـ وهى لون مما نسميه الآن بالحرب النفسية ـ قد استعملتها كثير من الدول ، كسلاح من أمضى وأقوى الأسلحة فى حربها لأعدائها ، وفى زرع الخوف والفشل فى النفوس .

ولعل من أبرع الدول في استعمال سلاح الإشاعات لمصلحتها، كانت دولة «المغول» بقيادة «جنكيز خان» وأتباعه، فقد استعمل هؤلاء القوم سلاح الإشاعات في تدمير القوى المعنوية لأعدائهم، وفي نشر الفرقة والشقاق وعدم الثقة في صفوفهم، وفي إلقاء الرعب والفزع في قلوبهم. تارة عن طريق إعداد مجموعات من قوافل التجار، وظيفتها نشر الأخبار التي مؤداها: أن جيش المغول لا يقف في وجهه شيء، وأنه يفعل ما لا يفعله البشر، فأفراده يأكلون فروع الأشجار، وإذا أعوزتهم الضرورة أكلوا لحوم البشر.

وتارة عن طريق الجواسيس الذين كانوا يرسلونهم ليندسوا بين صفوف من يريدون قتالهم، ليشيعوا فيهم ما يزلزلهم ويرعبهم ويقضي على مقاومتهم.

وتارة عن طريق العيون التي كانوا يستعملونها لتزويدهم بالأخبار المفصلة عن تحركات أعدائهم، وعن عددهم، وعن مواطن الضعف فيهم.

وتارة عن طريق الرسائل المفزعة التي كانوا يرسلونها لرؤساء الدول التي يريدون غزوها وقهرها وبذلك استطاع «المغول» أن يلقوا الرعب في قلوب الجيوش والشعوب قبل المعركة، حتى إذا ما جاء وقت المعركة وجدوا أعداءهم لقمة سائغة يبتلعونها في سهولة ويسر!!

-٤-

ومن أعجب رسائلهم، تلك الرسالة التي أرسلها «هولاكو» أحد قادتهم، إلى السلطان «قطز» حاكم مصر في ذلك الوقت، وقد أرسلها مع أربعين من رجاله، ومما جاء فيها:

«من ملك الملوك شرقا وغربا، القائد الأعظم «هولاكو» . . يعلم الملك المظفر «قطز» الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم. . أننا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد

سمعتم أننا فتحنا البلاد، وقتلنا العباد، فعليكم الهرب، وعلينا الطلب، فأى أرض تئويكم؟ وأى طريق تنجيكم؟ وأى بلاد تحميكم؟

ليس لكم من سيوفنا مناص، ولا من سهامنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، والحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع. . ومن طلب حربنا ندم، ومن قصد الاستسلام لنا سلم، وقد ثبت عندنا أن كثيركم قليل، وعزيزكم ذليل، فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب».

-٥-

ووصلت هذه الرسالة العجيبة إلى السلطان «قطز» فما كان منه - بعد أن استشار الأمراء والوزراء فى مصر، إلا أن قتل الذين حملوا هذه الرسالة إليه، وعلق رءوسهم على باب «زويلة»، ولم يعبأ بما جاء فيها من وعيد وتهديدات، ولم يلتفت إلى ما ورد فيها من إشاعات كاذبة، الغرض منها إضعاف الروح المعنوية عند المصريين، مع أنه يعلم علم اليقين أن هؤلاء القوم من التتار، قد جاءوا من أواسط آسيا، واستطاعوا فى فترة وجيزة أن يقضوا على الخلافة العباسية فى بغداد، وأن يستولوا على بلاد الشام، ولم يبق أمامهم سوى مصر، آخر معقل للإسلام فى الشرق.

وأعد السلطان «قطز» عدته لحرب التتار، ولم يقبل أن ينتظر قدومهم نحو مصر، بل خرج إليهم إلى «غزة»، ثم إلى أسوار «عكا»، ثم اتجه بجيشه إلى نهر الأردن.

وأخيرا التقى الجمعان فى «عين جالوت» فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ سنة ١٢٦٠م، وكانت المعركة بين الفريقين حامية، قاتل فيها المصريون أعداءهم بشجاعة وإقدام، وفيها صاح الملك المظفر قطز بأعلى صوته، «وا إسلاماه» فكان لهذا الصوت المدوى صداه فى نفوس المصريين، إذ استطاعوا - بفضل الله - تعالى - وبصدق إيمانهم، وبسمو إخلاصهم، وبعلو همتهم،

أن ينتصروا على جحافل التتار، وأن يردوهم على أعقابهم خاسرين، وأن يزيلوا من أذهان الناس تلك الإشاعات الكاذبة، التي لو صدقوها لكانت الدائرة على المسلمين!!

-٦-

وإذا كان السلطان «قطز» رحمه الله - لم يصدق الإشاعات فكانت عاقبته النصر، فإن الذين تأثروا بها، وصدقوها، كانت عاقبتهم الخسران، ويكفى أن نسوق كدليل على ذلك ما أصاب المسلمين من نكبات فى معركة «بلاط الشهداء» بجنوب فرنسا سنة ١١٤هـ سنة ٧٣٢م.

وملخص هذه المعركة - كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان - رحمه الله - فى كتابه: دولة الإسلام فى الأندلس - العصر الأول -: «أن الفتح الإسلامى قد انساب من أسبانيا إلى جنوب فرنسا، ففزع الفرنج، وهبت القبائل الجرمانية، لتذود عن سلطانها وكيانها.. وكان على رأس الجيش الإسلامى «عبد الرحمن الغافقى» صاحب الهمة والشجاعة، ومعه ما يقرب من مائة ألف مقاتل.. وتشاور الإفرنج ماذا يفعلون؟ فقال قائدهم «شارل مارتل»: «الرأى عندى ألا تعترضوا المسلمين فى خرجتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل من يقف فى وجهه، وهم فى إقبال من أمرهم، ولهم ثبات يغنى عن كثرة العدد، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسوا فى الرياسة، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر».

ثم قال الأستاذ محمد عبد الله عنان ما ملخصه: «وكان الجيش الإسلامى يحمل معه الغنائم التى أثقلته، وكان يضعها فى مؤخرة الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقى أن يمنع المقاتلين من حمل الغنائم معهم، إلا أنهم لم يستجيبوا له.. وبدأ القتال لمدة سبعة أيام أو ثمانية... ولاح النصر للمسلمين.. وهنا انتشرت إشاعة كاذبة فى صفوف المسلمين، بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى يد العدو، فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم، فدب الخلل فى صفوف المسلمين، وعبثا حاول قائدهم عبد الرحمن الغافقى أن يعيد

النظام، وأن يهدئ من روع الجند، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف، يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته، فسقط قتيلا من فوق جواده، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى، وكثر القتل فى صفوف المسلمين، وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر سنة ٧٣٢م، أوائل رمضان سنة ١١٤هـ».

وسميت هذه المعركة ببلاط الشهداء، لكثرة من استشهد فيها من كبار المسلمين والتابعين، إذ بلغ عدد الشهداء فيها أكثر من عشرين ألف شهيد فى جيش لم يزد على مائة ألف.

-٧-

وقد علق الأستاذ عبد الحميد العبادى ـ رحمه الله ـ فى كتابه: «المجمل فى تاريخ الأندلس» (ص٤٧) على هذه المعركة بقوله: «وتعد هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى التاريخ العام، إذ ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير. . وهذه المعركة من غير شك عظيمة الأهمية جدا فى التاريخ، لا لأن العرب هزموا فيها وارتدوا، بل لأنهم لم يعاودوا الغزو مرة أخرى».

وهكذا نرى أن تصديق الإشاعات الكاذبة كان لها أسوأ الآثار، وأقبح النتائج، لا سيما فى أوقات الحروب، وما من أمة تفشو فيها الإشاعات الكاذبة فتصدقها إلا وكانت عاقبتها الخسران، وما من أمة يكثر فيها عدد الذين يحتقرون المروجين للإشاعات الكاذبة، ويفضحون أراجيفهم، إلا ارتفع شأنها، وصلح حالها، وفتح الله ـ تعالى ـ عليها بركات من السماء والأرض، والتاريخ فى ماضيه وحاضره خير شاهد على ما نقول، ورحم الله القائل:

ليس بإنسان ولا عاقل　　من لا يعى التاريخَ فى صدره
ومن درىَ أخبارَ من قبلَه　　أضاف أعمارا إلى عمره

من وسائل القضاء على الإشاعات الكاذبة

أ ـ التثبت من صحة ما يقال وما يسمع

ـ ١ ـ

من محاسن شريعة الإسلام: تعليلها للأحكام، بمعنى أنها عندما أمرت أتباعها باعتناق الفضائل كالصدق والعدل والعفاف، بينت لهم النتائج الطيبة، والعواقب الحميدة، والحياة الطيبة الآمنة، التى تترتب على التحلى بهذه الفضائل.

وعندما نهتهم عن ارتكاب الموبقات والرذائل، كالكذب والظلم والفحش، وضحت لهم ما يترتب على ارتكابها فى العاجل والآجل، من خسران فى السلوك، ومن عواقب سيئة، ومن عقوبات فى دنياهم وفى آخرتهم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

ولقد ذكرنا فيما سبق، ما أشاعه المبطلون من إشاعات كاذبة حول الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وحول الأخيار الأطهار من الناس، وحول القرآن الكريم، وحول اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، كما ذكرنا جانبا من الآثار السيئة، والنتائج المردية التى ترتبت على تصديق الإشاعات والأراجيف.. والسؤال الآن كيف حارب الإسلام هذه الإشاعات؟ وما هى الوسائل التى اتبعها لغرس فضيلة الثقة فى الأفراد والجماعات، لكى يكثر الخير بين الناس؟

ـ ٢ ـ

من أهم الوسائل التى اتبعتها شريعة الإسلام لمحاربة الإشاعات الكاذبة: التثبت من صحة ما يُقال وما يُسمع. وذلك لأن من صفات العقلاء من الناس أنهم يتثبتون

من صحة الأمور، ويتبينونها بأناة وحكمة، ويتأكدون من سلامتها قبل الحكم لها أو عليها، أما الذين يتعجلون فى الأحكام، ويصدقون ما يقال أو يسمع دون تثبت أو تبصر، فإنهم يقعون فى الأخطاء التى تضرهم ولا تنفعهم.

والذى يتدبر القرآن الكريم، يجد كثيراً من آياته تأمر الناس بالتثبت من صحة ما ينطقون به، وما يسمعونه من غيرهم، وما يقرءونه فى صحفهم، وما يدور بينهم من أحداث فى حياتهم.

ومن هذه الآيات قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ٩٤).

-٣-

وقد ذكر العلماء فى سبب نزول هذه الآية روايات متعددة إلا أنها متقاربة فى المعنى، وكلها تدل على وجوب التثبت وتبين الأمور، ومن هذه الروايات ما جاء فى الصحيحين عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال: «بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بطن من قبيلة جهينة، فصبحنا القوم على مياههم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناه، - أى: أدركناه - قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصارى، وطعنته برمحى حتى قتلته، فلما قدمنا المدينة، بلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لى: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»؟ فقلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذا - أى: إنما كان يقولها معتصما بها من القتل لا معتقدا لها - فقال مرة ثانية: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»؟ فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم - أى: حتى تمنيت أنه لم يكن تقدم إسلامى بل ابتدأته اليوم -.

وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لأسامة: «أقال لا إله إلا الله وقتلته»؟ قلت يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح. فقال - صلى الله عليه وسلم -: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا».

- ٤ -

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان، إذا خرجتم من بيوتكم وسرتم فى الأرض من أجل إعلاء كلمة الحق، فاطلبوا التثبت والتأكد من صحة ما تفعلونه وما تتركون، واحذروا أن تقولوا لمن أظهر لكم الإسلام لست مسلما، فإن البواطن لا يعلمها إلا الله، واحذروا أن تسيئوا الظن بإنسان نطق بالشهادتين، بأن تعتدوا عليه من أجل أخذ أمواله، مدعين أنه نطق بالشهادتين لا حبا فى الإسلام وإنما خوفا من سلاحكم، وكيف تفعلون ذلك وأنتم عندما أسلمتم اكتفى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منكم بالنطق بالشهادتين، وقد امتن الله عليكم بأن تقبل منكم ما نطقتم به، وما دام الأمر كذلك فاقبلوا ظواهر الناس دون فحص عن بواطنهم، ولا تصدروا أحكامكم عليهم إلا بعد التثبت والتأكد من صحة هذه الأحكام، فإن الأحكام التى تبنى على الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، والظنون السيئة، سيحاسبكم خالقكم عليها حسابا عسيرا؛ لأنه - سبحانه - هو العليم بدقيق الأمور، وهو الخبير بما تسره النفوس.

هذا، ومن الأحكام الشرعية التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة: وجوب التثبت فى الأحكام وفى الأقوال، ومعاملة الناس على حسب ظواهرهم حتى يثبت خلاف ذلك؛ لأن الحكم على الناس بالظنون والشبهات والشائعات، يفسد الأمة، وينزع الثقة من بين أفرادها، ويؤدى إلى تفرقها وخسرانها.

- ٥ -

ومن أجمع الآيات القرآنية التى حاربت الإشاعات الكاذبة، وأمرت المؤمنين بالتثبت من صحة ما يصل إليهم من أخبار، قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات: ٦ - ٨).

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها: ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث «الوليد بن عقبة» إلى قبيلة بنى المصطلق ليجمع منهم زكاة أموالهم، وإنهم حين وصلهم الخبر، فرحوا وخرجوا ليستقبلوا مبعوث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رآهم «الوليد بن عقبة» رجع - ظنا منه أنهم خرجوا للاعتداء عليه - ثم ذهب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال له: يا رسول الله، إن قبيلة بنى المصطلق امتنعوا عن دفع زكاة أموالهم!! فغضب - صلى الله عليه وسلم - وبينما هو - صلى الله عليه وسلم - يفكر فيما يفعله معهم، إذ أتاه وفد منهم فقالوا: يا رسول الله، لقد بلغنا أنك أرسلت إلينا من يجمع منا زكاة أموالنا، وأنه رجع قبل أن يصل إلينا، وأننا خشينا أن يكون رجوعه بسبب كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله - تعالى - من غضبه ومن غضب رسوله - صلى الله عليه وسلم - علينا.. ثم نزلت هذه الآيات.

-٦-

ولفظ «الفاسق» يطلق على كل من خرج على الحدود الشرعية التى يجب التزامها، مأخوذ من قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت عن قشرتها، وسمى بذلك لانسلاخه عن الخير والرشد.

وقرأ الجمهور «فتبينوا» وقرأ حمزة والكسائى «فتثبتوا» ومعناهما واحد، إذ هما بمعنى التأنى وعدم التعجل فى الحكم على الأمور.

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر من الأخبار، فلا تقبلوه دون تثبت، بل تأكدوا من صحته.

والتعبير «بإن» المفيدة للشك، للإشعار بأن الغالب فى العقلاء اليقظة، ومعرفة مداخل الأمور ومخارجها، وما يترتب عليها من نتائج، ويحكمون عقولهم فيما يسمعون من أنباء، ولا يقيمون وزنا للإشاعات والأراجيف.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ تعليل للأمر بالتثبت. والجهالة: بمعنى الجهل بحقيقة الشىء.

أى: تثبتوا ـ أيها المؤمنون ـ من صحة الأخبار التى تصل إليكم من أى إنسان لا يعرف عنه الصدق التام، لئلا تصيبوا قوما بما يؤذيهم، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم.

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾: بيان للنتائج السيئة التى تترتب على تصديق الأخبار غير الصحيحة، والإشاعات التى لا أصل لها فى الواقع: أى: فتصيروا نادمين على ما فعلتم مع قوم برءاء مما نسب إليهم.

فالآية الكريمة ترشد الناس فى كل زمان ومكان إلى التثبت من صحة ما يصلهم من أخبار، حتى لا يقعوا فى الندم فى وقت لا ينفع فيه الندم، وباتباع هذا الإرشاد يعيش الجميع فى أمان واطمئنان.

ـ٧ـ

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من النعم التى أنعم بها على عباده المؤمنين فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ والعنت: الوقوع فى الأمر الشاق المؤلم.

ويفهم من الآية الكريمة أن بعض المسلمين، صدقوا «الوليد بن عقبة» فيما قاله، وأشاروا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعجل بعقوبة قبيلة بنى المصطلق، إلا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تريث فى الأمر ولم يتخذ حكما عاجلا فى المسألة.

والمعنى: واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أن فيكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أرسله الله ـ تعالى ـ لكى يهديكم إلى الحق، وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو يطيعكم فى كثير من الأخبار التى يسمعها منكم، وفى الأحكام التى تريدون تطبيقها عليكم أو على غيركم، لو يطيعكم فى كل ذلك، لأصابكم العنت والمشقة، ولنزل بكم ما قد يؤدى إلى هلاككم وإتلاف أحوالكم.

وقوله ـ سبحانه ـ: «ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان»: استدراك على ما يقتضيه الكلام السابق، وبيان لمظاهر فضله ـ سبحانه ـ عليهم، ورحمته بهم.

أى: ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يطيعكم فى كل ما تشيرون به عليه، وإنما يتثبت من صحة الأقوال والأخبار والأفعال، ثم يحكم عليها بالحكم العادل الصائب، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ بكم، أنه حبب إلى أكثركم الإيمان المصحوب بالعمل الصالح، وبالقول الطيب، وزينه وحسنه فى قلوبكم، وكره وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلكم من الراشدين الثابتين على الحق، فضلا منه ـ تعالى ـ عليكم، ورحمة منه بكم، إذ هو صاحب المغفرة الواسعة، والعلم الشامل لكل شىء، والحكمة السامية فى كل أفعاله وأقواله.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة، قد رسمت للناس جميعا أحكم الطرق فى تلقى الأخبار، وفى الحكم عليها، وفى التثبت من صحتها، وفى نبذ الإشاعات الكاذبة التى تصديقها يؤدى إلى العداوة والبغضاء.

كما أرشدتهم إلى جانب من فضل الله ـ تعالى ـ عليهم، ومن رحمته بهم، لكى يداوموا على شكره وطاعته.

ـ ٨ ـ

ولقد تكاثرت الآثار النبوية التى تدعو المسلمين إلى التثبت من صحة الأقوال والأعمال، وإلى تبين الأمور قبل الحكم عليها، وإلى نبذ الإشاعات الكاذبة والأراجيف الباطلة، ومن ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «التثبت من الله والعجلة من الشيطان» وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «التؤدة فى كل شىء خير، إلا فى عمل الآخرة».

ومن أقوال أمير المؤمنين على بن أبى طالب لأحد تلاميذه: «ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعى غاش، وإن تشبه بالصالحين، واعلم أن من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون».

ومن وصايا عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - لأحد قضاته : «إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يحضر الخصم الآخر، فلعله قد فقئت عيناه معا».

والخلاصة : أن من خير الوسائل للقضاء على الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، التثبت من صحة ما يقال وما يسمع، والتأنى فى الحكم على الأشياء، وتبين الأمور تبينا سليما؛ لأن عدم التبين للأمور، والميل وراء الإشاعات يؤدى إلى كثير من الأضرار التى تجعل الإنسان يفقد أصدقاؤه، ويزيد فى عدد أعدائه.

نسأل الله - تعالى - أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم.

ب ـ رد الأمور إلى مصادرها الأصيلة

ـ ١ ـ

إذا كان للعقلاء صفات معينة، تشهد بسلامة تفكيرهم، وبصلاح حالهم، وباستنارة بصائرهم، وبفهمهم للحياة وأحداثها فهما قويما، فإن صفة أخذ الأحكام من مصادرها الصحيحة الأصيلة، تعد من أفضل الصفات للأخيار من الناس.

وإذا كانت الصفات تتميز بضدها، فإن صفة القول بغير علم، والحكم دون بينة، تعد من أقبح الصفات التى لا تلتصق إلا بالسفهاء الأشرار.

وما أحكم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧).

لقد جاءت هذه الآية فى سياق الرد على أولئك الذين زعموا أن الأنبياء لا يكونون من البشر، وأشاعوا بين من على شاكلتهم فى الغفلة والجهل، أن ا لرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يصلح أن يكون رسولا؛ لأنه بشر كسائر البشر، والرسول يجب أن يكون ـ فى زعمهم ـ من الملائكة، فرد القرآن عليهم بهذا الرد الحكيم، الذى لقنه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم.

ومعنى الآية الكريمة: وما أرسلنا قبلك ـ يا محمد ـ إلى الأمم السابقة إلا رسلا من البشر، ليعيشوا حياة البشر، وليتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم، ولو كان الرسل من غير البشر، لما كانت هناك وشيجة ورابطة بينهم وبين أقوامهم.

فهذه الجملة وهى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾: رد مفحم على

الجاهلين، الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا، وقالوا قبل ذلك: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقوله - سبحانه -: ﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾: بيان لكيفية الإرسال. أى: اقتضت حكمتنا أن الرسل من الرجال، وأن نبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحى المنزل إليهم من جهتنا.

وقوله - تعالى -: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾: توبيخ لهؤلاء الغافلين؛ لأنهم قالوا ما قالوا دون تعقل أو تدبر.

أى: ما دامت قد بلغت بكم الغفلة أن تستبعدوا أن يكون الرسل من البشر، فاسألوا أهل العلم لكى يوضحوا لكم بالمنطق والبرهان أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالا، فإن شفاء الجهل السؤال للخبراء فى كل فن وعلم، وإن السفهاء وحدهم هم الذين يفتون بغير علم، ثم يشيعون ذلك بين الناس عن سوء نيته، وقبح طوية!!

- ٢ -

ولقد كان من الرذائل التى دمغ الله - تعالى - بها المنافقين، أنهم كانوا يفشون أسرار المؤمنين، ويشيعون عنهم الشائعات الكاذبة فى الحرب وفى السلم، ولا يأخذون الأمور من العلماء بها.

ومن الآيات القرآنية التى فضحت مسالك هؤلاء المنافقين قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء: ٨٣).

والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه -: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ الأخبار المهمة التى يكون لها آثارها إذا أذيعت وأشيعت. وقوله - تعالى -: ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أى: نشروه وأذاعوه. يقال: أذاع فلان الخبر وأذاع به، إذا أفشاه وأعلنه.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين إذا سمعوا شيئا من الأخبار التى تتعلق بأمن المسلمين أو خوفهم أذاعوها وأظهروها قبل أن يقفوا على حقيقتها.

قال الإمام الآلوسى ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية: «والكلام مسوق لبيان جناية أخرى من جنايات المنافقين، أو لبيان ما كانوا عليه من سلوك ذميم، وذلك أنهم كانوا إذا أغزت سرية من المسلمين قالوا عنها: أصاب المسلمون من عدوهم كذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا، من غير أن يكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يخبرهم به».

ـ٣ـ

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان يجب على هؤلا المنافقين فعله لو كانوا يعقلون فقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

والمراد بأولى الأمر هنا: كبار الصحابة البصراء بالأمور. وقيل المراد بهم: الولاة وأمراء السرايا وقادة المقاتلين.

ومعنى «يستنبطونه»: يستخرجونه، إذ الاستنباط ـ كما يقول الإمام القرطبى ـ مأخوذ من استنبطت الماء، إذا استخرجته. والنبط: الماء المستخرج أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تحفر. وسمى النبط نبطا؛ لأنهم يستخرجون ما فى الأرض من مياه وغيرها.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين وضعاف النفوس، كان من شأنهم وحالهم أنهم إذا سمعوا شيئا من الأمور فيه أمن أو خوف يتعلق بالمؤمنين أشاعوه وأذاعوه وأظهروا دون تحقق أو تثبت، بقصد بلبلة الأفكار، واضطراب الأحوال، ولو أن هؤلاء المنافقين ومن يستمعون إليهم، ردوا ذلك الخبر الذى وصل إليهم، والذى أشاعوه دون تثبت، لو أنهم ردوه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى كبار أصحابه البصراء بالأمور، لعلموا من جهة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن جهة كبار أصحابه، حقيقة تلك الأخبار علما صحيحا، ولعرفوا ما يجب عليهم نحوها من كتمان أو إذاعة.

فالجملة الكريمة ترشد هؤلاء المنافقين إلى ما كان يجب عليهم عمله، وتوبخهم على مسالكهم الخبيثة التى من أقبحها أنهم كانوا يفشون أسرار المؤمنين، وينشرون الإشاعات الكاذبة عنهم، دون الرجوع إلى أخذ ما يذيعونه أو ينشرونه من أهل العلم الذين عندهم الإلمام والمعرفة بحقيقة الأمور لو سئلوا عنها.

-٤-

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان فضله على عباده المؤمنين الصادقين فقال: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

أى: ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - بتوفيقه إياكم إلى الخير والطاعة، لوقعتم فى إغواء الشيطان، كما وقع هؤلاء المنافقون وأشباههم، إلا عددا قليلا منكم، وهم الذين أخلصوا دينهم لله واعتصموا به، فصاروا لا سبيل للشيطان عليهم، كما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢).

وقد أخذ العلماء جملة من الأحكام عند حديثهم عن هذه الآية الكريمة، ومن الأحكام التى أخذوها منها: وجوب عدم إذاعة الأخبار - خصوصا فى حالات الحروب - إلا بعد التأكد من صحتها ومن عدم إضرارها بمصلحة الأمة، ووجوب أخذ هذه الأخبار من مصادرها الصحيحة، ومن العالمين بحقيقة هذه الأخبار.

وفى ذلك يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾. هذه الآية الكريمة إنكار على ما من يبادر بالأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع».

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة - رضى ا لله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن قيل وقال.

وفى الحديث الصحيح يقول - صلى الله عليه وسلم -: «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين».

وفى سنن أبى داود أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «بئس مطية الرجل زعموا».

ـ٥ـ

ولقد عدد الإمام الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآية، الأضرار والمفاسد، التى تعود على الأمة، عندما يذيع ضعاف العقول فيها الأخبار دون أن يأخذوها من مصادرها الصحيحة فقال: وكان الضرر من إذاعة هذه الأخبار من وجوه:

أ ـ أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الضرر والكذب الكثير.

ب ـ أنه إذا كان ذلك الخبر فى جانب الأمن، زاد فيه المنافقون وضعاف العقول زيادات كثيرة، فإذا لم توجد فيها تلك الزيادات، أورث ذلك شبهة عند بعض الناس فى صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن المنافقين كانوا يقصدون من وراء تلك الإرجافات، الإساءة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى أصحابه.

وإن كان ذلك الخبر فى جانب الخوف، تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين، ووقعوا عنده فى الحيرة والاضطراب، فكانت تلك الإرجافات سببا للفتنة من هذا الوجه.

حـ ـ أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعى على البحث الشديد والاستقصاء التام، وذلك سبب لظهور الأسرار، وذلك مما لا يوافق مصلحة الأمة.

د ـ أن العداوة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين وبين أعدائهم، فكل ما كان أمنا لأحد الفريقين، كان خوفا للفريق الآخر، فإن وقع خبر الأمن للمسلمين، أرجف المنافقون بذلك، فوصل الخبر إلى الأعداء فأخذوا فى المكر بالمسلمين. وإن وقع خبر الخوف للمسلمين، بالغ المنافقون فى ذلك وزادوا عليه، فظهر من كل ذلك أن هذا الإرجاف إنما هو منشأ للفتن والآفات من كل الوجوه، ولما كان

الأمر كما قلنا، ذم الله ـ تعالى ـ المنافقين الذين ينشرون الإشاعات الكاذبة، دون أن يأخذوا الأخبار من مصادرها الصحيحة.

ـ٦ـ

ولقد علق الشيخ ابن المنير ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية ـ وكان معاصرا للحروب الصليبية ـ فقال: «وفى هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذبا.. وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبار، ولقد جربنا ذلك فى زماننا هذا، منذ طرق العدو المخذول البلاد ـ طهرها الله منه ومن رجسه، وصانها من بخسه، وعجل لنا الفتح، وأنزل علينا السكينة والنصر».

والخلاصة: أن أخذ الأخبار من غير مصادرها الصحيحة، ثم نشرها بطريقة سيئة بقصد بلبلة الأفكار، جريمة فيها ما فيها من الأضرار بالأفراد وبالجماعات وبالأمة؛ لأنها إن كانت تتعلق بالأمن، فإنها قد تحدث لونا من التراخى وعدم أخذ الحذر، وإن كانت تتعلق بالخوف فإنها قد تحدث اضطرابا فى الصفوف، وتشكيكا فى القدرة على مواجهة الأخطار.

والمجتمع الذى يكثر فيه العقلاء الراشدون، هو الذى تقل فيه إذاعة الأخبار إلا من مصادرها الصحيحة، وهو الذى يرجع أفراده فى معرفة الحقائق إلى أهل العلم والخبرة المتخصصين.

وهكذا نرى الآية الكريمة، تغرس فى نفوس الناس أسمى ألوان الإخلاص لدينهم ولأمتهم ولقيادتهم، فهى فى مطلعها تنكر عليهم إذاعة الأخبار دون تحقق من صدقها ومن فائدتها، وفى وسطها تأمرهم بأن يرجعوا إلى حقائق دينهم وإلى الحكام العادلين والعلماء المتخصصين الذين يعرفون الأمور حق المعرفة، لكى يسألوهم عما خفى عليهم، وفى آخرها تذكرهم بفضل الله ـ تعالى ـ عليهم، وبرحمته بهم، حتى يداوموا على طاعته، ويشكروه على نعمه.

-٧-

ولقد أخبرنا القرآن الكريم بأن من أقبح الفواحش : القول بغير علم، ونشر الإشاعات الكاذبة دون الرجوع فيما ينشر إلى المصادر الصحيحة الأصيلة، ويكفي في الأدلة على ذلك قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف : ٣٣).

أي : وحرم الله - تعالى - أيها الناس - أن تقولوا قولا، هذا القول لا دليل على صحته لا من النقل ولا من النفل، فإن هذا القول من الفواحش التي ينالكم الشقاء بسببها في الدنيا والآخرة.

جـ ـ كتمانها وعدم تكرار الحديث عنها

ـ ١ ـ

من أنجح الوسائل، ومن أحكم الأساليب، للقضاء على الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة: كتمانها وعدم نقلها من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى جماعة، ومن مكان إلى آخر؛ لأن هذا الكتمان لها يميتها، ويدل على احتقارها وعلى الاستخفاف بها، ومتى حدث ذلك فى أمة، سادها الأمان والاطمئنان.

ولقد كان من الآداب السامية، والتوجيهات الحكيمة، التى أمر الله ـ تعالى ـ المؤمنين بالتزامها، أنهم إذا سمعوا إشاعة خبيثة أشاعها المنافقون ومن فى قلوبهم مرض، فعليهم أن يكتموها، ولا ينقلها من سمع بها إلى آخر، لأن فى نقلها من شخص إلى آخر ترويج لها.

وتبدو هذه الآداب والتوجيهات فى آيات متعددة من كتاب الله ـ عز وجل ـ ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ١٦ ـ ١٨).

وقد وردت هذه الآيات الكريمة، خلال حديث القرآن الكريم، عما أشاعه المنافقون ومن على شاكلتهم، من إشاعات كاذبة، ومن أراجيف باطلة، ومن تهم خبيثة، عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.

-٢-

ولفظ «سبحانك» معناه: تنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق بجلاله، ثم شاع استعمال هذا اللفظ فى كل أمر يتعجب منه، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

ولفظ «البهتان» يطلق على الكذب الذى يبهت ويحير سامعه لشناعته وقبحه وفظاعته. يقال: بهت فلان فلانا، إذا قال عليه ما لم يقله ولم يفعله.

والمعنى: وهلا قلتم - أيها المؤمنون - وقت أن سمعتم الحديث الكاذب ممن افتراه على السيدة عائشة - رضى الله عنها - هلا قلتم له على سبيل الزجر والردع والإفحام: ما يصح منا أبدا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الدركات فى الكذب والافتراء!!

وهلا قلتم لهذا المنافق وأمثاله ممن ينشر الشائعات الباطلة حول الأطهار والطاهرات: نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه، فإن ما سمعناه عن الصديقة بنت الصديق، كذب يدهش من يسمعه، ونحن سنكتم هذه الأراجيف الباطلة، ولا نتحدث بها بحال من الأحوال.

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا التوجيه الحكيم لأتباعه، بل قال لهم: يعظكم الله - تعالى - أيها المؤمنون - بما يرقق القلوب، ويحذركم من الخوض فى أى حديث فيه إساءة إلى الأخيار الأطهار، وعليكم أن تمتثلوا لما أمركم به أو نهاكم عنه خالقكم إن كنتم من المؤمنين حق الإيمان، ويبين لكم - سبحانه - الآيات التى تسعدكم فى دنياكم وفى آخرتكم، وهو - سبحانه - عليم بأحوال خلقه، حكيم فى جميع ما يأمر به وما ينهى عنه.

وهكذا يؤدب الله - تعالى - عباده بالأدب السامى، حيث يأمرهم أن يكتموا الإشاعات الكاذبة، وألا يتحدثوا بها أمام أحد، وأن ينزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع إليها، وأن يستنكروا ذلك ممن يتفوه بها.

-٣-

والذى يقرأ ما قبل هذه الآيات، ويقرأ ما بعدها، يجد التهديد الشديد، والعقاب الأليم، لكل من ينشر الإشاعات الكاذبة، ولكل من يخوض فى قبحها.

فقبل هذه الآيات نجد قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (النور: ١٤، ١٥).

أى: ولولا فضل الله عليكم ـ أيها المؤمنون ـ ورحمته بكم، لنزل بكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، عذاب عظيم لا يعلم مقداره إلا خالقكم وحده، فقد تلقى هذا الحديث الكاذب بعض ضعاف النفوس عن بعض، وحكم بأحكام باطلة دون أن يكون عنده أى علم أو بينة أو دليل عليها، ويتوهم أن ما خاض فيه من الأمور الهينة، والحال أن ما خاض فيه عقابه فى حكم الله ـ تعالى ـ عقاب أليم شديد.

وبعد هذه الآيات نجد قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩).

ـ ٤ ـ

ومن أجمع الآيات القرآنية التى توعدت الذين ينشرون الإشاعات الكاذبة بأشد أنواع العقاب، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢).

والمنافقون: جمع منافق، وهو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر.

والذين فى قلوبهم مرض: هم قوم ضعاف الإيمان، قليلو الثبات على الحق.

والمرجفون فى المدينة: هم الذين كانوا ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين، ويلقون الأكاذيب الضارة بهم، ويذيعونها بين الناس.

وأصل الإرجاف: التحريك الشديد للشىء، مأخوذ من الرجفة التى هى بمعنى

الزلزلة. ووصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها فى ذاتها متزلزلة غير ثابتة، أو لإحداثها الاضطراب فى قلوب الناس.

-٥-

وقد سار بعض المفسرين على أن هذه الأوصاف الثلاثة، كل وصف منها لطائفة معينة.

وسار آخرون على أن هذه الأوصاف الثلاثة لطائفة واحدة هى طائفة المنافقين، وأن العطف بينها لتغاير الصفات مع اتحاد الذات، كما فى قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة فى المزدحم

أى: إلى الملك المعظم ابن الهمام ليث الكتيبة.

وقد سار صاحب الكشاف - رحمه الله - على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة من الفاسقين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: قوم كان فيهم ضعف فى الإيمان، وقلة ثبات عليه.

﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾: ناس كانوا يتكلمون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقولون: هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين.

والمعنى: لئن لم ينته ويكف المنافقون عن عدائكم وكيدكم - أيها المؤمنون - وينته ويكف الفسقة عن فجورهم، ويسكت الناشرون لإشاعات السوء، لنأمرنك - أيها الرسول الكريم - بأن تفعل بهم الأفاعيل، وبأن تنزل بهم العقوبات التى تردعهم وتخيفهم وتزلزل كيانهم.

فقوله - تعالى -: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أى: لنسلطنك عليهم فتنزل بهم العقوبات العادلة الرادعة التى تجعلهم يخسئون ولا ينطقون.

وقوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً﴾ عقوبة أخرى لهؤلاء الذين

يحبون أن ينشروا الإشاعات الكاذبة فى صفوف الأمة، لكى يفرقوا صفها، وينزعوا الثقة التى بين أبنائها.

أى: لنسلطنك عليهم - أيها الرسول الكريم، ثم هم بعد ذلك لا يبقون مجاورين لك فى المدينة إلا زمانا قليلا، أو وقتا قصيرا، يرتحلون بعده بعيدا عنكم، وبذلك تتقون شرورهم.

وجاء العطف بثم فى قوله - سبحانه -: ﴿ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ﴾ للإشارة إلى أن إجلاءهم عن المدينة نعمة عظيمة بالنسبة للمؤمنين، ونقمة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المنافقين وأشباههم، إذ كلهم يتشابهون فى إيذاء المؤمنين، وفى إشاعة الأكاذيب والأراجيف التى لا أصل لها.

وقوله - سبحانه -: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ عقوبة ثالثة من العقوبات التى هيئت لهؤلاء الفاسقين الذين يصرون على نشر الإشاعات الكاذبة فى الأمة.

أى: أنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله، بسبب سوء سلوكهم، فإذا ما أدركهم أهل الحق، وهم مصرون على فجورهم، أخذوا أسارى أذلاء، وقتلوا تقتيلا شديدا، وهذا حكم الله - تعالى - فيهم حتى يقلعوا عن نفاقهم وعن إشاعاتهم الكاذبة، وعن قالة السوء فى المؤمنين.

ثم بين - سبحانه - أن سنته التى لا تتخلف، قد اقتضت تأديب الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا فقال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

أى: سن الله - تعالى - ذلك سنة فى الأمم الماضية من قبلكم - أيها المؤمنون - بأن جعل تأديب الذين يسعون فى الأرض بالفساد، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات باتهامهم بما هم برءاء منه، سنة من سننه التى لا تتخلف، ولن تجد - أيها العاقل - لسنة الله النافذة فى خلقه، تبديلا أو تحويلا، لقيامها على الإرادة الحكيمة، والعدالة القوية.

ولقد علّم النبى - صلى الله عليه وسلم - أتباعه بقوله وبفعله، أن عليهم أن يكتموا - ولا سيما فى حالة الحرب - الأخبار التى فيها ضرر بهم، حتى ولو كانت أخبارا صحيحة . .

ومن الأدلة على ذلك، أنه عندما جمع المشركون جموعهم فى غزوة «الأحزاب» وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف من قريش وحلفائها، واتجهوا بخيلهم ورجلهم لقتال المسلمين بالمدينة المنورة . .

وأقبلت هذه الجيوش المتحزبة نحو المدينة، وحفر المسلمون خندقا حول المدينة لحمايتها، وأحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة، وأصاب المسلمين ما أصابهم من الهم والكرب، وقد عبر القرآن عن ذلك فى قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ⑩ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٩ - ١١).

فى هذه الساعات الحرجة القاسية، نقض يهود «بنى قريظة» عهودهم مع المسلمين الذين كانوا يسكنون معهم بالمدينة المنورة، وبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك، فكتم الخبر، واستدعى بعض أصحابه وقال لهم: «انطلقوا إلى بنى قريظة، فانظروا، هل حق ما بلغنا عنهم من أنهم نقضوا عهودهم، وانضموا إلى جيوش الأحزاب؟ فإن كانوا قد نقضوا عهودهم، فعندما تعودون من عندهم، الحنوا لى لحنا أعرفه دون الناس، ولا تفتوا فى عضد الناس - أى: قولوا لى قولا أفهم منه أنهم نقضوا عهودهم دون أن يعرف الناس ذلك - وإن كانوا على الوفاء بعهودهم فاجهروا بذلك فى الناس».

وذهب الوفد إلى يهود بنى قريظة، فوجدوهم قد نقضوا عهودهم، ومزقوا الصحيفة التى كانت بينهم، وبين المسلمين، والتى تنص على أنه إذا تعرضت المدينة

للأخطار، فعلى سكانها جميعا أن يدافعوا عنها، وقال الوفد للنبى - صلى الله عليه وسلم - بعد عودتهم، كلمة السر التى يفهمها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحده، وهى «عضل والقارة»، أى: أن يهود بنى قريظة قد نقضوا عهودهم، وانضموا إلى جيوش الأحزاب، وفعلوا ما فعلته قبيلتى عضل والقارة من الغدر والخيانة.

وهكذا علَّم النبى - صلى الله عليه وسلم - أتباعه أن الأخبار التى فيها ضرر بالأمة يجب كتمانها حتى ولو كانت صادقة، وأن من أنجح الوسائل للقضاء على الإشاعات الكاذبة، هى كتمانها وعدم تكرارها وتردادها.

د ـ مواجهتها بالحقائق الثابتة وبالأدلة القاطعة

ـ ١ ـ

لا يختلف عاقلان فى أن الناس منذ أوجدهم الله ـ تعالى ـ على هذه الأرض، وهم يتنازعون فيما بينهم، فى أمور منها ما يتعلق بدينهم ومنها ما يتعلق بدنياهم، إلا أن الراشدين منهم يحاربون الباطل بالحق، ويحاربون الشر بالخير، ويحاربون الظلم بالعدل، ويحاربون الرذائل بالفضائل، ويحاربون الكذب بالصدق، ويحاربون الإشاعات والأراجيف، بالحقائق الثابتة، وبالأدلة القاطعة، وبالمنطق القويم، وبالأسلوب المحكم الذى يأتى على بنيان الأشرار من القواعد؛ لأن سنن الله ـ تعالى ـ فى خلقه، اقتضت أنه لا يصح فى النهاية إلا الصحيح، والكذب لا ثبات له، ويستطيع الكذاب الذى من طبعه نشر الإشاعات الباطلة حول الأخيار الأطهار، يستطيع أن يخدع كل الناس بعض الوقت، كما يستطيع أن يخدع بعض الناس كل الوقت، إلا أنه لا يستطيع أن يخدع كل الناس كل الوقت.

ـ ٢ ـ

ومن أفضل الوسائل لدحض الإشاعات الكاذبة: مواجهتها بالحقائق التى تزهقها، وبالمنطق الحكيم الذى يفضح المتفوهين بها، والناشرين لها.

ونكتفى هنا، بذكر بعض النماذج لأناس عقلاء حكماء، استمعوا إلى ما أشاعه أعداء الحق عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فردوا عليهم بما يخزيهم.

ومن هذه النماذج ما حدث فى السنوات الأولى من بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أذن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعدد ممن آمنوا به بالهجرة إلى الحبشة، بعد أن آذاهم المشركون أذى شديدا، وكان من بين المهاجرين السيدة رقية ابنة النبى ـ صلى

الله عليه وسلم - وزوجها عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وعدد آخر من المهاجرين لم يزيدوا على بضعة عشر رجلا، وبعد وصولهم إلى الحبشة بفترة من الزمان، عادوا مرة أخرى إلى مكة؛ لأنهم بلغهم أن المشركين قد هادنوا المسلمين وتركوهم أحرارا، ولكنهم وجدوا أن الأمر خلاف ذلك، وأن زعماء الشرك مازالوا على عهدهم فى إيذاء المؤمنين.

-٣-

وهنا وجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن من الحكمة أن يأذن لعدد أكبر من أصحابه بالهجرة مرة ثانية إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تنبه لها المشركون وقرروا فشلها، إلا أن المسلمين استطاعوا أن يفلتوا من محاصرة المشركين، وخرج منهم فى تلك الهجرة أكثر من ثمانين رجلا، وما يقرب من عشرين امرأة، ووصلوا إلى بلاد الحبشة؛ ليكونوا فى جوار «النجاشى» ملك الحبشة، الذى كان مشهورا بالعدل وبالحكمة.

وعز على المشركين أن يجد المؤمنون مأمنا لهم فى بلاد الحبشة، فبعثوا إلى «النجاشى» ملك الحبشة بالهدايا مع وفد منهم، وزودوا هذا الوفد بالإشاعات الكاذبة ضد المؤمنين، لكى يطردهم «النجاشى» من بلاده، وكان مما قاله «عمرو بن العاص» - قبل أن يسلم - للنجاشى: «أيها الملك إن ناسا من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، ونرجو أن تطردهم من بلادك...».

إلا أن «النجاشى» رأى أن العدل فى الأحكام يستلزم تمحيص القضية، وسماع جميع الأطراف، فأرسل إلى أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - فحضروا، وكان المتكلم عنهم «جعفر بن أبى طالب» - رضى الله عنه - فقال له النجاشى: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من الناس؟

فقال له جعفر: «أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأتى

الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويظلم القوى منا الضعيف، فبعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء... فآمنا به وصدقناه، وحرمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فتعدى علينا قومنا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نظلم عندك».

- ٤ -

وبعد أن استمع «النجاشى» إلى كلام جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال له: يا جعفر، هل معك شىء مما جاء به رسولكم - صلى الله عليه وسلم - عن ربه؟ فقال: جعفر: نعم، ثم قرأ عليه آيات من سورة «مريم».

فقال النجاشى بعد أن استمع بتدبر وتفكر فيما قرأه عليه جعفر: «إن هذا الذى استمعت إليه، والذى جاء به عيسى - عليه السلام - ليخرج من مشكاة واحدة».

ثم التفت النجاشى إلى وفد قريش وقال لهم: انطلقوا، والله لن أسلم هؤلاء المسلمين إليكم أبدا، ثم رد هدية وفد قريش إليهم وقال: «ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناس فىّ حتى أطيعهم فيه».

ثم التفت إلى المسلمين المهاجرين وقال لهم: «اذهبوا فأنتم آمنون، وما أحب أن لى جبلا من ذهب وأننى آذيت رجلا منكم».

وهكذا يرد العقلاء الراشدون الشجعان، على الإشاعات الكاذبة، بالمنطق السليم، وبالحقائق الدامغة، التى تجعل المتفوهين بالأراجيف، يرتدون على أعقابهم وهم يجرون أذيال الخيبة والخسران!!

-٥-

ونموذج آخر من العقلاء الحكماء الذين يحاربون الإشاعات الكاذبة بالمنطق الصحيح، وبالحجج الدامغة، نراه فيما فعله «هرقل» ملك الروم، مع من سألهم عن النبى - صلى الله عليه وسلم.

وذلك أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد صلح الحديبية، أخذ يرسل الرسائل إلى الملوك والزعماء، يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وكان «هرقل» ممن أرسل إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رسالة، يدعوه فيها إلى الإسلام، بأن قال له: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإنى أدعوك بكلمة الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين...».

وبعد أن وصلت الرسالة إلى «هرقل» كلف بعض رجاله أن يبحثوا له عن جماعة من العرب، وأن يحضروهم إليه، وتصادف أن كان أبو سفيان ومعه عدد من الرجال فى تجارة لهم فى بلاد الشام، فأحاط بهم حرس «هرقل»، وأخذوهم إليه، وعرف هرقل أن أبا سفيان - وكان مازال كافرا - هو رئيس تلك المجموعة من الرجال العرب، فقال له: يا أبا سفيان إنى سائلك عن محمد - صلى الله عليه وسلم - أسئلة فأجبنى عنها.

ثم قال له: كيف نسبه فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. فقال له: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقال: لا. فقال له: هل كان من آبائه من كان ملكا؟ فقال: لا. فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: ضعفاؤهم. فقال له: أيزيدون أم ينقصون؟ فقال: بل يزيدون. فقال له: هل يرتد أحد من أتباعه بعد إسلامه؟ فقال: لا. فقال له: هل يغدر محمد؟ فقال: لا. فقال له: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. فقال له فكيف كان قتالكم إياه؟ فقال له: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. فقال له: فبماذا يأمركم؟ فقال: يأمرنا بعبادة الله وحده وبإقامة الصلاة وبالصدق وبالعفاف.

-٦-

وهنا قال هرقل للترجمان - وكان قد بلغه أن أبا سفيان وأمثاله من مشركى قريش، يشيعون عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه ساحر، وأنه كاهن. . . . - قل - أيها الترجمان - لأبى سفيان: إنى سألتك عن نسب محمد - صلى الله عليه وسلم - فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله، فذكرت أن لا. وأقول: لو كان أحد قال هذا القول من قبله، لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من كانا ملكا فذكرت أن لا، وأقول: لو كان من آبائه من كان ملكا لقلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب فذكرت أن لا، وأقول: ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله!!

وسألتك عن أتباعه أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وأقول: هذا شأن الإيمان حتى يتم.

وسألتك أغنياء الناس اتبعوه أم فقراؤهم فذكرت أنهم فقراؤهم، وأقول: هذا هو الحال فى أكثر أتباع الرسل.

وسألتك هل يرتد أحد منهم كراهة لدينه فذكرت أن لا. وأقول: هذا حال الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وأقول: كذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك بماذا يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم بعبادة الله، وبالصلاة، وبالصدق وبالعفاف.

ثم وجه «هرقل» كلامه إلى أبى سفيان ومن معه فقال: يا أبا سفيان، إن كان ما تقوله عن محمد - صلى الله عليه وسلم - حقا، فإنه سيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أن رسولا من الله - تعالى - سيظهر، ولكنى لم أكن أظن أنه منكم، ولو أعلم أنى أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه.

-٧-

ولا شك فى أن الذى يتـأمل فى هذه المحـاورة التى دارت بين «هرقل» ملك الروم، وبين أبى سفيان زعيم قريش، والذى كان مازال مشركا، والذى كان هو ومن معه يحذرون الناس من الاستجابة للدعوة الإسلامية، ويصفون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما هو برىء منه.

لا شك أن الذى يتأمل رد هرقل على أبى سفيان، يجد فيه العقل والحكمة، يجد فيه الصدق والشجاعة، يجد فيه الرد القاطع لكل إشاعة كاذبة، ولكل تهمة باطلة.

وهكذا العقلاء الأخيار فى كل زمان ومكان، يحاربون الإشاعات والأراجيف، بالحقائق الثابتة، وبالأساليب الحكيمة، وبالمنطق القويم الذى يحق الحق، ويبطل الباطل.

-٨-

نموذج ثالث عملى: أوصى النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بفعله، ليردوا ردا عمليا وواقعيا على ما أشاعه مشركو قريش من أن المسلمين بعد أن هاجروا من مكة إلى المدينة، وبعد أن استقروا بها، أصيبوا بالضعف، وأنهم قد وصلوا إلى درجة كبيرة من العسر والتعب.

فأراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبطل هذه الإشاعة الكاذبة عن طريق المشاهدة، فاضطبع بردائه، وأخرج عضده اليمنى، فى عمرة القضاء فى السنة السابعة من الهجرة، وأمر أصحابه أن يفعلوا مثله، ثم قال لهم: «رحم الله رجلا أرى المشركين من نفسه قوة» ثم أخذ يطوف بالكعبة، ويسعى بين الصفا والمروة هو وأصحابه بقوة ونشاط إظهاراً لبأس المسلمين، وتكذيبا لما أشاعه المشركون عنهم من ضعف ووهن.

وهكذا العقلاء الراشدون يحاربون الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، بالحقائق الدامغة، وبالبراهين الساطعة، وبالأقوال الصحيحة، وبالأفعال السليمة، التى تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق؛ لأنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح.

هـ ـ غرس الروح المعنوية العالية فى الأمة

ـ ١ ـ

من سمات الأمم العاقلة القوية، أنك ترى أبناءها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وأن أفرادها يتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأنهم لحبهم لدينهم ولأوطانهم ينبذون كل إشاعة كاذبة من شأنها إن صدقها الناس أن يلحقهم الأذى والضرر.

والقائد الملهم الحكيم، صاحب البصيرة النافذة، والعزيمة القوية، والهمة العالية، والشجاعة الفائقة، هو الذى يستطيع ـ لا سيما فى أوقات المحن والأزمات ـ أن يجمع شمل جنوده، وأن يقوى الروح المعنوية فى أمته، وأن يجعل الجميع ينبذون الإشاعات الكاذبة، ويحتقرون الأراجيف الباطلة، ويلقون خلف ظهورهم كل ما يؤثر فى أخوتهم واتحادهم وجمع صفوفهم.

ـ ٢ ـ

والذى يقرأ سيرة سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يراه قد ضرب أروع الأمثال بقوله وفعله، فى تقوية الروح المعنوية فى نفوس أتباعه، وفى شحذ هممهم من أجل الدفاع عن دينهم وأوطانهم، وفى عدم التأثر لما يشيعه أعداؤهم عنهم من أقوال باطلة.

ومن الأدلة على ذلك: موقفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أعقاب غزوة «أحد»، تلك الغزوة التى استشهد فيها عدد كبير من المسلمين، بسبب مخالفة بعضهم لوصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وبدأ المنافقون ومن على شاكلتهم يعلنون شماتتهم وفرحهم لما أصاب المسلمين من جراح، وينشرون الأراجيف حول الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وحول دعوته، فكان من أقوالهم: «لو كان محمد - صلى الله عليه وسلم - نبيا حقا ما تغلب عليه أعداؤه، ولكنه طالب مُلك تكون الدولة له وعليه».

كما كان من أقوالهم: لو أن المسلمين الذين خرجوا للقتال فى غزوة «أحد» أطاعونا، وبقوا فى المدينة كما فعلنا نحن، لما أصابهم ما أصابهم من هزائم.

وبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - ما أشاعه المنافقون وأشباههم من إشاعات كاذبة، كما بلغه أن المشركين يريدون العودة على قتال المسلمين، وأنهم بعد انتهاء القتال فى غزوة «أحد» جعل كفار قريش يتلاومون، ويقول بعضهم لبعض: «لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكة المسلمين ثم تركتموهم ولم تبتروهم، وقد بقيت منهم رءوس يجمعون لكم، فلا محمد أصبتم، ولا الكواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم»!!

-٣-

وهنا رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه لابد من عمل سريع، يزيل أثر الحزن من قلوب أصحابه، ويزيدهم ثباتا على ثباتهم، وقوة على قوتهم، ويرفع من روحهم المعنوية، ويسترد ما فقدوا من هيبة فى نفوس أعدائهم، فعزم - صلى الله عليه وسلم - على أن يخرج بأصحابه فى أثر قريش، رغم ما أصابهم من جراح فى غزوة «أحد» وما كان بهم من تعب وحزن.

وكان - صلى الله عليه وسلم - يقصد بعمله هذا، أن يقطع الطريق على المرجفين الذين أشاعوا أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة بعد الذى أصابهم فى غزوة «أحد» وأن يشعر قريشا وحلفاءها أن المسلمين لم يضعفوا، وأنهم فى إمكانهم أن يرهبوا أعداء الله وأعداءهم، وأن قوة المسلمين مازالت كما هى، بل إنها لتزداد يوما بعد يوم.

وقد أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أحد أصحابه أن ينادى فى الناس فى اليوم التالى من انتهاء غزوة «أحد» أن يعدوا أنفسهم للخروج لقتال المشركين،

وألا يخرج معه - صلى الله عليه وسلم - إلا من كان مشاركا فى القتال فى غزوة «أحد»، فلبى الجميع نداء المنادى، وأسرع كل واحد فى حمل سلاحه، رغم ما بهم من جراح.

- ٤ -

وفيهم نزل قوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٢).

قال الإمام الفخر الرازى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: اعلم أن الله - تعالى - مدح المؤمنين على غزوتين تعرف إحداهما بغزوة حمراء الأسد، والثانية بغزوة بدر الصغرى، وكلتاهما متصلة بغزوة أحد.

أما غزوة حمراء الأسد فهى المرادة من هذه الآية، فإن الأصح فى سبب نزولها، أن أبا سفيان ومن معه من المشركين بعد أن انصرفوا من غزوة «أحد» وبلغوا مكانا يقال له «الروحاء» فى طريقهم إلى بلادهم ندموا وقالوا: إنا قتلنا أكثر المسلمين، ولم يبق منهم إلا القليل فلماذا تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع إلى المسلمين لنستأصلهم، وهموا بالرجوع.

وبلغ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - فأراد أن يرهب قريشا وحلفاءها، وأن يريهم من نفسه ومن أصحابه قوة، فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان وقال: «لا أريد أن يخرج الآن معى، إلا من كان معى فى القتال بالأمس». ثم خرج - صلى الله عليه وسلم - فى أصحابه حتى بلغوا «حمراء الأسد» وهو مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة، فألقى الله - تعالى - الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا.

ثم قال الإمام الفخر الرازى - رحمه الله -: «وروى أنه كان فى المسلمين من يحمل صاحبه على عنقه ساعة، ثم كان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى، وكان كل ذلك لشدة ما بهم من جراح...».

ومعنى الآية الكريمة: الثواب الجزيل، والأجر العظيم، من الله - تعالى -

للمؤمنين الذين شهدوا غزوة «أحد» والذين بعد انتهاء المعركة استجابوا لدعوة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - لكى يخرجوا للأخذ بثأرهم من أعدائهم، فخرجوا مسرعين طاعة لله - تعالى - ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - رغم ما بهم من قروح وجروح شديدة، لهؤلاء الذين أحسنوا ما كلفوا به، وأخلصوا نياتهم لله، العطاء العظيم الذى لا يعلم مقداره سوى خالقهم.

- ٥ -

ومن الأمثلة الرائعة التى تدل دلالة واضحة على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يحرص كل الحرص على أن تكون الروح المعنوية فى أتباعه فى ارتفاع دائم، وفى قوة دافقة، بحيث لا تؤثر فى نفوسهم الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، ما فعله - صلى الله عليه وسلم - فى أعقاب غزوة «أحد» فقد وقف أبو سفيان فرهوا بين الصفوف - وكان قائداً لجيش المشركين ولم يكن قد أسلم بعد - وقف ينادى ويقول بأعلى صوته: نعمت فعال، إن الحرب سجال، أعْلُ هبل!! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «قم يا عمر فأجبه وقل له: الله أعلى وأجل».

فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم!! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه قولوا له: «الله مولانا ولا مولى لكم»!!

فقال أبو سفيان: إن موعد لقائنا بكم فى بدر العام القادم، فقال - صلى الله عليه وسلم - قولوا له: «هو بيننا وبينكم موعد».

ودار العام دورته، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - خلاله يغرس فى قلوب أصحابه الروح المعنوية العالية، التى تجعلهم فى أسمى درجات القوة والثبات والاستعداد للقاء قريش وحلفائها.

وفى شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة، خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، للقاء أبى سفيان وجيشه من قريش وحلفائها، تنفيذا للموعد الذى حدده للقتال عند انصرافه من غزوة «أحد»، وبقى - صلى الله

عليه وسلم ـ ثمانية أيام فى المكان المحدد للقاء، وهو المكان المسمى ببدر، وكان هذا المكان موضع سوق للتجارة.

أما أبو سفيان وحزبه، فقد ألقى الله ـ تعالى ـ الرعب فى قلوبهم، إلا أنهم استأجروا رجلا من زعماء قبائل العرب وقالوا له: اذهب فاندس بين المسلمين وخوفهم من لقائنا، وانشر الإشاعات التى تجعلهم يخشون لقاءنا، ولك كذا من الإبل، وذهب الرجل وأخذ يشيع أن قريشا قد أقبلت بجموع كثيرة، لا طاقة للمسلمين بحربهم، وبلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك، فأخبر المسلمين أنه مصمم على لقاء المشركين وعلى قتالهم إذا ما جاءوا إلى هذا المكان، وأقسم قائلا: «والذى نفسى بيده لأخرجن لقتالهم وإن لم يخرج معى أحد» وازدادت الروح المعنوية عند المسلمين، واستهانوا بالإشاعات الكاذبة التى أشاعها ذلك الرجل المستأجر من أبى سفيان، فما كان منه ـ بعد أن بلغه تصميم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه على قتاله إذا ما أقبل نحوهم بجيشه ـ إلا أن قال لمن معه من المشركين: «يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم للقتال إلا عام ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع إلى مكة فارجعوا»!!

ورجع المشركون، وباءت قريش بخزى الخوف عن لقاء المسلمين، حتى سماهم أهل مكة «جيش السويق» أى: الجيش الذى خرج للأكل فقط، وقالوا لهم فى تهكم واستهزاء: لماذا وعدتم المسلمين باللقاء فى بدر، ثم نكلتم عن لقائهم، فأصابكم الخزى والعار؟!

ـ ٦ ـ

وفى شأن هذه الغزوة التى سميت بغزوة «بدر الآخرة» نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥).

والمقصود بلفظ الناس فى قوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ ذلك الرجل الذى استأجره أبو سفيان لتخذيل المسلمين، ولإشاعة أنهم لا قدرة لهم على قتال المشركين.

والمقصود بلفظ الناس فى قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ أبو سفيان ومن معه من المشركين.

ومعنى الآيات الكريمة إجمالا: المدح العظيم، والثواب الجزيل، لأولئك المؤمنين الصادقين، الذين خرجوا مع رسولهم - صلى الله عليه وسلم - لدحر أعدائهم، والذين اندس بين بعضهم رجل أجير لأبى سفيان وقومه، فأخذ يشيع بين المسلمين أنهم لا قدرة لهم على قتال المشركين، فلم يلتفتوا إلى قوله، ولم يستمعوا إلى إشاعاته الكاذبة، وإلى أراجيفه الباطلة، بل إن هذا القول الذى تفوه به هذا الأجير، زادهم إيمانا على إيمانهم، وزادهم ثباتا على ثباتهم، وزادهم قوة على قوتهم، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أى: وقالوا: كافينا الله أمر أعدائنا، ونعم النصير خالقنا - عز وجل - فهو وحده الذى نكل إليه أمرنا ومصيرنا.

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المؤمنين الصادقين من خير وفير فقال: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أى: فرجعوا إلى ديارهم مصحوبين بنعمة عظيمة من الله، وبزيادة فى العطاء؛ إذ خذل أعداءهم، وخيب إشاعاتهم الكاذبة.

﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أى: لم يصبهم أى مكروه عند خروجهم أو عند عودتهم ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أى: واتبعونا ما يرضى الله عنهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن هؤلاء المؤمنين الصادقين، الذين نبذوا الإشاعات الكاذبة خلف ظهورهم، قد صحبهم عند عودتهم أربعة أمور: أحدها: النعمة العظيمة، وثانيها: الفضل الجزيل، وثالثها: السلامة من السوء، ورابعها: اتباع ما يرضى الله - تعالى -.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات، بأمر عباده المؤمنين أن يجعلوا خوفهم من الله -

تعالى ـ وحده فقال : ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى : يوسوس فى قلوب حزبه من المنافقين وأشباههم ليقعدوا عن كل خير ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ ـ أيها المؤمنون ، واجعلوا خوفكم منى وحدى ، وانبذوا أقوالهم الباطلة ، فإنكم متى فعلتم ذلك كنتم من المفلحين .

وهكذا نرى أن على رأس الوسائل المحاربة الإشاعات الكاذبة ، غرس الروح المعنوية العالية فى النفوس ، حتى تقدم على إعلاء كلمة الحق ، بكل ثبات وصدق وإخلاص لدينها ولأمتها .

و ـ تغليب حسن الظن بالناس

ـ ١ ـ

من أفضل الأحكام التى جاءت بها شريعة الإسلام لمحاربة الإشاعات الكاذبة، والتهم الفاسدة: أمرها لأتباعها أن يكون سلوكهم قائما على تغليب حسن الظن فيما بينهم، وأن يبنوا أحكامهم على الظواهر؛ لأن الذى يعلم البواطن والسرائر هو الله ـ تعالى ـ.

والأمة السعيدة الرشيدة هى التى يكثر فيها الأفراد الذين يبنون علاقاتهم مع غيرهم على حسن الظن، وعلى عواطف المحبة المشتركة، والمودة الخالصة، والتعاون المتبادل، والثقة الوثيقة، والابتعاد عن سوء الظن دون أن يكون هناك ضرورة تدعو إليه، إذ من دعاء المؤمنين الصادقين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠).

ولقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى: الناس أفضل؟ فقال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان» قيل: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقى النقى الذى لا إثم فى قلبه ولا بغى ولا غل ولا حسد». ولقد نهى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتباعه عن أن يبلغوه أخبارا لا يحب أن يسمعها، فقال: «لايبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

-٢-

والذى يتدبر القرآن الكريم يراه قد عد حسن الظن فى مواطنه خلقا من أخلاقه، وفضيلة من فضائل المجتمع العاقل المستقيم الطهور، وأن سوء الظن دون مقتض ليس من أخلاق المؤمنين الصادقين فقد قال - سبحانه - عندما أشاع المنافقون حديث الإفك عن السيدة عائشة - رضى الله عنه -: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: ١٢).

والمعنى: هلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - حديث الإفك هذا، ظننتم بأنفسكم، أى: بإخوانكم وبأخواتكم ظنا حسنا جميلا، وقلتم لمن تفوه بهذا الحديث المفترى: هذا كذب لا يصدقه عقل أو نقل. وفى التعبير عن إخوانهم وأخواتهم بأنفسهم: أسمى ألوان الدعوة إلى غرس فضيلة حسن الظن فيما بينهم، حتى لكأن الذى يظن الظن السيئ بغيره، إنما ظنه بنفسه.

ولقد ضرب المؤمنون والمؤمنات أروع الأمثال فى حسن الظن بغيرهم، فها هو ذا أبو أيوب الأنصارى عندما أشاع مرضى النفوس حديث الإفك عن السيدة عائشة، قال أبو أيوب لامرأته: يا أم أيوب، أسمعت ما يقوله بعض الناس عن عائشة؟ قالت: سمعت وهذا هو الكذب!! ثم قالت له: هل كنت مكان «صفوان» - وهو الشخص الذى اتهم مع عائشة - أكنت تظن بحرمة رسول الله - صلى ا لله عليه وسلم - سوءا؟ قال: لا. فقالت له: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعائشة خير منى، وصفوان خير منك!!

وهكذا الأخيار الأطهار، يبنون أمورهم على حسن الظن بالناس.

-٣-

ولقد أمر الله - تعالى - عباده أن يبتعدوا عن الظنون السيئة التى لا مبرر لها، وأن يقيموا حياتهم على الظنون الحسنة التى تنبذ الإشاعات الكاذبة التى ينشرها الأشرار عن الأخيار، فقال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

ولفظ «اجتنبوا» من الاجتناب. يقال: اجتنب فلان فلانا إذا ابتعد عنه، حتى لكأنه فى جانب وغيره فى جانب آخر. والمقصود بالظن المنهى عنه هنا: الظن السيئ بأهل الخير دون دليل أو برهان.

قال بعض العلماء ما ملخصه: «والظن أنواع، منه ما هو واجب، ومنه ما هو محرم، ومنه ما هو مباح.

فالمحرم: كسوء الظن بالمسلم المستور الحال، الظاهر العدالة، ففى الحديث الصحيح: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

وفى حديث آخر: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يُظن به السوء».

والظن الواجب يكون فيما تعبدنا الله - تعالى - بعلمه، ولم ينصب عليه دليلا قاطعا، فهنا يجب الظن للوصول إلى المعرفة الصحيحة، كقبول شهادة العدل، وكتحرى القبلة عند الصلاة.

والظن المباح: مثلوا له بالشك فى الصلاة حين استواء الطرفين».

والمعنى: يا من آمنتم بالله إيمانا حقا، ابتعدوا ابتعادا تاما عن الظنون السيئة بأهل الخير؛ لأن هذه الظنون السيئة التى لا تستند إلى دليل أو قرينة صحيحة، إنما هى مجرد تهم، تؤدى إلى تولد الشكوك والمفاسد فيما بينكم.

وجاء - سبحانه - بلفظ «كثيرا» بصيغة التنكير، لكى يحتاط المسلم فى ظنونه، فيبتعد عما هو محرم منها، ولا يقدم إلا على ما هو واجب منها أو مباح.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: «ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثيرا منه احتياطا، ففى الحديث الشريف - عن حارثة بن النعمان - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «ثلاث لازمات لأمتى: الطيرة - أى: التشاؤم - والحسد، وسوء الظن» فقال رجل: يا رسول الله، ما الذى يُذهب مَنْ هُنَّ فيه؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظَننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال: «كتب إلىّ بعض إخوانى من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ضع أمر أخيك على أحسنه، ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه».

- ٤ -

وإذا كان القرآن الكريم قد أرشدنا إلى أن حسن الظن من صفات المؤمنين الصادقين، فإنه فى الوقت ذاته قد أخبرنا بأن الظن السيئ صفة أعداء رب العالمين، فقد خاطب - سبحانه - أعداءه فيما خاطبهم بقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت: ٢٢، ٢٣).

والمعنى: أن جوارح هؤلاء المشركين تقول لهم يوم الحساب على سبيل التوبيخ والتأنيب: أنتم لم تكونوا فى الدنيا تخفون أعمالكم السيئة، خوفا من أن نشهد عليكم، ولكنكم كنتم تخفون هذه الأعمال السيئة ظنا قبيحا منكم بربكم أنه لا يعلم ما تخفونه، وذلكم الظن السيئ الذى ظننتموه بخالقكم هو الذى أهلككم وصيركم من الخاسرين؛ لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء!!

وفى موطن آخر نجد القرآن الكريم يصف أولئك الذين كانوا يظنون الظنون السيئة بالمؤمنين، يصفهم بالجهل الفاضح، وبالتعاسة فى الدنيا والآخرة فيقول: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (الفتح: ١٢).

وقد نزلت هذه الآية الكريمة فى الرد على المتخلفين، الذين لم يخرجوا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى صلح الحديبية، والذين قالوا للرسول - صلى الله عليه وسلم -: «شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا» فكان الرد عليهم: أنتم - أيها

المتخلفون - عن مصاحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لستم صادقين فى أقوالكم، والحق أنكم منافقون تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم، وأنتم ما تخلفتم عن طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا لأنكم ظننتم ظنا سيئا، وهو أن الرسول ومن معه من المؤمنين، سيقتلهم أعداؤهم، ولن يعودوا بعد ذلك إلى أهليهم مطلقا، وحسَّن الشيطان هذا الظن البالغ نهاية السوء فى قلوبكم فقبعتم فى دياركم، وظننتم فى كل ما يتعلق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبأتباعه الصادقين، الظن الذى كله سوء وشر ومنكر ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى: وكنتم قوما هالكين فاسدين لا تصلحون لشىء من الخير، ولا تستحقون إلا الخزى والعقاب.

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذم هؤلاء المتخلفين وفضحهم، وتوعدهم بسوء المصير، لأسباب متعددة، من أهمها: سوء ظنهم بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالمؤمنين، وقد ترتب على سوء ظنهم هذا، أن نشروا الشائعات الكاذبة حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول أصحابه.

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - فى السورة ذاتها: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾.

- ٥ -

إن من واجب الإنسان العاقل أن يتذكر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد دعا أتباعه فى كل زمان ومكان، إلى تغليب حسن الظن على سوء الظن، ونهاهم عن تتبع الزلات والعورات فقال - صلى الله عليه وسلم - «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه طلب الله عورته حتى يفضحه فى قعر بيته».

بل نهى - صلى الله عليه وسلم - كل مسئول أن يجعل سوء الظن أساس المعاملة لمن هو مسئول عنهم فقال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم» أى: لا يصح لمن هو فى وظيفة هو رئيس لها أن يعامل من هم تحت مسئوليته معاملة تحملهم

على سوء الظن فيما بينهم؛ لأنه لو فعل ذلك أفسدهم، وجعلهم لا يثق أحدهم بالآخر، فيترتب على ذلك ضياع مصالح الأمة.

وفى الحديث الصحيح: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» أى: احذروا سوء الظن دون مقتض لذلك، فإن سوء الظن دون ضرورة تدعو إليه يعد من الرذائل المنهى عنها.

-٦-

ومن أراد أن يحسن الناس به الظن فعليه أن يتجنب الشبهات ومواطن التهم، وألا يقول قولا أو يفعل فعلا يحمل غيره على سوء الظن به، ولقد ضرب لنا سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أروع الأمثال فى اتقاء الشبهات، فقد روت أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيى بن أخطب، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان معتكفا فى المسجد، فذهبت إليه وتحدثت معه، فلما أرادت الانصراف، قام - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمشى معها، فمر بهما رجلان من الأنصار، فسلما وانصرفا مسرعين، فناداهما الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال لهما: «إنها زوجتى صفية» فقالا: يا رسول الله، ما نظن بك إلا خيرا، فقال - صلى الله عليه وسلم - «أنا أعلم ذلك منكما ولكن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى ا لدم، وإنى خشيت أن يقذف فيكما شيئا».

والدعوة إلى حسن الظن ليس معناها الغفلة عن كيد الأعداء ومكرهم وسوء سعيهم، وإنما تعنى اليقظة والحذر، ولكن دون شطط أو تحميل الأشياء ما لا تحتمله، فكم من إشاعات كاذبة، وكم من أراجيف باطلة، وكم من تهم فاسدة، أساسها سوء الظن دون مبرر، ومبعثها الأحقاد والأهواء والابتزاز والشهوات والانقياد للهوى وللمنافع الذاتية، التى تتنافى مع كل خلق كريم، ومع كل سلوك حميد.

نسأل الله - تعالى - أن يجمعنا جميعا ممن يحسنون الظن بغيرهم، إنه - سبحانه - أكرم مسئول وأفضل مأمول.

هل حارب المسلمون أعداءهم بالإشاعات؟

-١-

قد تكلمنا فيما مضى عما أشاعه أعداء الحق من أكاذيب عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وعن الأخيار الأطهار من الناس، وعن القرآن الكريم، وعن اليوم الآخر.

ثم ذكرنا جانبا من الآثار السيئة التى ترتبت على تصديق الإشاعات الكاذبة، ثم وضحنا بعض الوسائل التى جاءت بها شريعة الإسلام لمحاربة الإشاعات الكاذبة، والتى من أهمها: محاربتها بالتثبت من صحة ما يقال وما يسمع، وبرد الأمور إلى مصادرها الصحيحة، وبكتمانها وعدم تردادها، وبالحقائق الثابتة، والبراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، وبغرس الروح المعنوية القوية فى الأمة، وبتغليب حسن الظن فى التعامل مع الغير.

والسؤال الذى وجهه إلىّ بعض القراء الكرام: هل حارب المسلمون أعداءهم بالإشاعات الكاذبة كما فعل أعداؤهم معهم؟

-٢-

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن شريعة الإسلام لم تبح لأتباعها أن يحاربوا أعداءهم بالإشاعات الكاذبة؛ لأن الكذب لا يليق بالمسلم، وإنما أباحت لهم أن يحاربوا أعداءهم بالأساليب الشريفة التى تزلزل أقدامهم، وتفرق جمعهم، وتلقى الرعب والفزع فى قلوبهم، وتردهم على أعقابهم خاسرين.

أباحت لهم فى أوقات الحروب أن يستعملوا الحرب النفسية التى تقذف الوهن

والخوف والفشل والتنازع فى نفوس الأعداء، فإن الحرب خدعة، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف.

ولقد مرت على المسلمين أحداث كثيرة، منها ما كان فى العهد النبوى، ومنها ما كان فى عهد الخلفاء الراشدين، ومنها ما كان بعد ذلك، وقد اضطر المسلمون خلال هذه الأحداث الصعبة القاسية، أن يحاربوا أعداءهم بكل سلاح مشروع لخذلان هؤلاء الأعداء، ولإنزال الهزائم بهم، ونكتفى هنا بذكر بعض النماذج لما فعله النبى - صلى الله عليه وسلم - لكيد أعدائه، ولتفريق جمعهم، ولدحر عدوانهم.

-٣-

ففى «غزوة الأحزاب» - على سبيل المثال - استعمل المسلمون سلاح التخذيل لأعدائهم، وكانت هذه الغزوة - على الراجح - فى شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة.

وملخصها: أن نفرا من اليهود - على رأسهم حيى بن أخطب - خرجوا إلى مكة، واجتمعوا بزعماء قريش، وألبوهم على حرب المسلمين، فأجابوهم إلى ذلك.

ثم خرجوا إلى قبيلة «غطفان» فحرضوهم على حرب المسلمين، فاستجابوا لهم - أيضا -.

ثم خرجت أحزاب الكفر من قريش وغطفان وغيرهما فى جيش كبير يبلغ تعداده ما يقرب من عشرة آلاف رجل، واتجهوا إلى المدينة المنورة لحرب المسلمين.

وعندما علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمقدمهم، استشار أصحابه، فأشار بعضهم بحفر خندق حول المدينة، وشارك الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى حفر الخندق، وكان خلال مشاركته لهم يغرس فى نفوسهم الثبات والقوة، ويكثر من التضرع إلى الله - تعالى - أن ينصره على أعدائه.

ففى صحيح البخارى عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر جسده وهو يقول:

والله لـولا الله ما اهتـدينا   ولا تصــدقنا ولا صلينــا

فأنـــزلن ســكينة علينــا   وثبت الأقــدام إن لاقينــا

فالمشركون قـد بغـوا علينا   وإن أرادوا فتنــــة أبينــا

وكان المسلمون يرددون خلفه - صلى الله عليه وسلم - هذا النشيد، الذى هو من شعر عبد الله بن رواحه - رضى الله عنه - ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة المنورة، فوجدوا الخندق قد حفر، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها، كما أن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد إذا ما حاولوا ذلك.

وخلال هذه الفترة العصيبة، نقض يهود بنى قريظة عهودهم مع المسلمين، وانضموا إلى جيوش الأحزاب، فزاد الخطب، وعظم البلاء على المسلمين.

ومكث الأحزاب محاصرين للمدينة المنورة قريبا من شهر، ثم جاء نصر الله - تعالى - حيث أرسل على جيوش الأحزاب، - ريحا شديدة، وجنودا من عنده - وما يعلم جنود ربك إلا هو - فتصدعت جبهات المشركين والمنافقين، وانكفأت خيامهم، وملأ الرعب قلوبهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

- ٤ -

وفى شأن أحداث هذه الغزوة أنزل الله - تعالى - ما يقرب من عشرين آية، افتتحها - سبحانه - بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الأحزاب: ٩ - ١١).

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، اذكروا على سبيل الشكر والاتعاظ، نعم الله عليكم، وقت أن أحاطت بكم جيوش الأحزاب، فأرسلنا عليهم ريحا شديدة زلزلتهم وجعلتهم يرحلون عنكم بفزع ورعب، كما أرسلنا عليهم - أيضا - جنودا لم

تروها من الملائكة الذين ألقوا الخوف فى قلوبهم، وكنا فوق ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر الخندق وغيره، وسامعين لدعائكم وقد أجبناه لكم.

ثم فصل - سبحانه - ما حدث للمؤمنين من اختبار وامتحان فى هذه الغزوة فقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى: واذكروا وقت أن جاءكم أعداؤكم من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم قبائل غطفان وهوازن وانضم إليهم يهود بنى قريظة بعد أن نقضوا عهودهم، وجاءكم مشركو قريش وحلفاؤهم من أسفل الوادى من جهة المغرب، واذكروا وقت أن تعبت أبصاركم وهى تراقب أعداءكم، وفزعت قلوبكم فزعا شديدا، حتى لكأنها قد انتقلت من أماكنها إلى أعلى، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم، وصرتم - أيها المؤمنون - تظنون بالله الظنون المختلفة، فمنكم من ازداد يقينا على يقينه، وازداد ثقة بوعد الله وبنصره، ومنكم من كان أقل من ذلك فى ثباته ويقينه، ومنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان والإسلام، وهو فى داخله يخفى الكفر والفسوق والعصيان.

ثم بين - سبحانه - ما أصاب المسلمين من أهوال خلال تلك الغزوة فقال: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ أى: فى ذلك المكان الذى أحاط به الأحزاب من كل جانب، امتحن الله - تعالى - المؤمنين واختبرهم، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه، واضطرب كثير منهم اضطرابا شديدا، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا بعض الصلوات فى أوقاتها لانشغالهم برد كيد أعدائهم وقالوا: يا رسول الله، ما صلينا صلاة العصر؟ فقال لهم - صلى الله عليه وسلم - «ولا أنا»، ثم قال: «شغلنا المشركون عن الصلاة الوسطى - صلاة العصر - ملأ الله أجوافهم نارا».

- ٥ -

وخلال تلك العسرة، وذلك الضيق، جاء فرج الله - تعالى - ويسره، فقد ألقى الله - تعالى - الإسلام فى قلب زعيم من زعماء جيش الأحزاب، وهو «نُعَيْم بن مسعود الغطفانى» أحد زعماء قبيلة غطفان، فجاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - سرا وقال: يا رسول الله، إنى أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فأمرنى بما شئت؟

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: «يا نعيم إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل

عنا ما استطعت - أي: فاعمل على تفريق جيش الأحزاب قدر استطاعتك - فإن الحرب خدعة»!!

فخرج «نعيم» حتى أتى بنى قريظة - وكان صديقا لهم فى الجاهلية - فقال لهم: يا معشر يهود بنى قريظة: قد عرفتم ودى إياكم، فقالوا له: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، ولا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم؟! لأنهم إن رأوا نهزة - أي: فرصة - أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين المسلمين ببلدكم، ولا قدرة لكم على قتال المسلمين، وما دام الأمر كذلك فلا تقاتلوا مع قريش وغطفان حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم.. فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج من عند يهود بنى قريظة حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه: قد عرفتم ودى لكم، وفراقى محمد، وإنى قد بلغنى أمر رأيت من حقكم على أن أبلغكم إياه نصحا لكم فاكتموه عنى. فقالوا له: نفعل.

فقال لهم: تعلمون أن معشر يهود بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد أرسلوا إليه فقالوا له: إنا قد ندمنا على ما فعلنا معك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيك إياهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم.

فإن بعث إليكم يهود بنى قريظة يطلبون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا.

ثم خرج إلى قبيلة غطفان فقال لهم: يا معشر غطفان، إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى، ولا أراكم تتهمونى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى. قالوا نفعل. ثم قال لهم الكلام الذى سبق أن قاله لقريش، وحذرهم مثل ما حذر قريش.

ثم أرسل أبو سفيان بعض رجاله يطلبون من اليهود أن ينضموا إليهم لقتال المسلمين، فقال اليهود لوفد قريش: لن نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن من أشرافكم، وهنا قال أبو سفيان وزعماء غطفان: إن ما حدثكم به «نعيم» حق، وأرسلوا إلى يهود بنى قريظة قائلين لهم: لن ندفع إليكم رجلا واحدا منا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقال اليهود حين بلغهم هذا الرد من قريش وغطفان: إن الذى قاله لكم «نعيم» هو الحق، وإن القوم ما يريدون قتال المسلمين، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك عادوا إلى بلادهم وتركونا.

ـ٦ـ

وهكذا نجحت خديعة «نعيم بن مسعود» فى تخذيل جيوش الأحزاب المتحالفة للعدوان على المدينة المنورة، وفى تفريق جموعهم، وفى بث الشكوك والخوف بين صفوفهم، وكان ما فعله «نعيم» للمسلمين أنفع لهم من عدد كبير من الرجال.

وقد أعقب ذلك أن أرسل الله ـ تعالى ـ على جيوش الأحزاب ريحا شديدة، فى ليلة شاتية قاسية البرد، فانكفأت خيامهم، وتشتت جمعهم، وانقلبت أحوالهم، وانقطعت حيلهم، وخاب سعيهم، فتنادوا فيما بينهم: الرحيل الرحيل، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أى: من حصونهم ـ ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧).

ولقد قال محمد بن إسحاق فى سيرته: «لما انصرفت جيوش الأحزاب عن الخندق، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم» فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا من عباده الصادقين.

خـــاتمـة

وبعد: فهذه بحوث محدودة، بينا فيها مفهوم الإشاعات الكاذبة، وأنها لون من الحروب النفسية التي يقصد بها مروجها إنزال الأضرار والشرور والخسائر والأذى.. بمن نشرت هذه الإشاعات الكاذبة ضده سواء أكان فردا أم جماعة أم أمة.

وقد دلت حقائق التاريخ، وتجارب الأيام، أن الإشاعات سلاح خطير، يمزق الأمم، ويفرق الجماعات، ويجعل الأفراد يسيء بعضهم الظن ببعض، ويؤدى إلى شيوع الكراهية وعدم الثقة بين الحاكمين والمحكومين.

كما دلت وقائع الأيام على أن أسرع الأمم تصديقا للإشاعات الكاذبة، هى الأمم الجاهلة، التى لا تحسن تقدير العواقب، ولا تضع الأمور فى مواضعها الصحيحة؛ لأنها لسذاجتها لا قدرة لها على النقد والتمحيص، وقد تحمل الإشاعة كذبها فى ظاهرها وباطنها، ولكن السفهاء لا يعرفون ذلك، أو قد يعرفون ولكنهم لسوء نياتهم ومقاصدهم يحرصون على نشر تلك الأراجيف والأكاذيب.

أما الأمم العاقلة الرشيدة، التى يكثر فيها عدد الأسوياء الشرفاء الأطهار، فهى بعيدة عن تصديق الإشاعات، وعن أن تروج فيها الأقاويل التى لا أساس لها من الصحة؛ لأن أفرادها ربطت بينهم روح الإيمان الصادق، والإخاء الخالص، فصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وأصبح كل فرد فيها يغلب حسن الظن على سوء الظن ولقد ربى النبى - صلى الله عليه وسلم - أتباعه على غرس حسن الظن فيما بينهم، ومن أقواله الحكيمة فى هذا الشأن: «لا تحدثونى عن أصحابى حديثا أكرهه، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

ولقد بينا ألوانا من الإشاعات الكاذبة التى أشاعها أعداء الحق والفضائل، عن

الرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وعن الأخيار الأطهار الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه . . كما وضحنا جانبا من الآثار السيئة والمهلكة التى تترتب على تصديق الإشاعات والأراجيف لا سيما فى أوقات الحروب والأزمات .

كما وضحنا جانبا من الوسائل المتنوعة التى جاءت بها شريعة الإسلام ، للقضاء على الإشاعات الكاذبة ، والأراجيف الباطلة .

ألا وإن بركة العلم ليست فى كثرته ، وإنما بركة العلم فى العمل بما نقول ، وفى العمل بما نسمع .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا وشفيعنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

شيخ الأزهر

محمد سيد طنطاوى

الفهـــرس

من كتب
فضيلة الإمام الأكبر
الدكتور محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

١ ـ التفسير الوسيط للقرآن الكريم ـ خمسة عشر مجلدا
٢ ـ القصة فى القرآن الكريم ـ مجلدان
٣ ـ أدب الحوار فى الإسلام .
٤ ـ الاجتهاد فى الأحكام الشرعية .
٥ ـ معاملات البنوك وأحكامها الشرعية .
٦ ـ جوامع الدعاء من القرآن والسنة .
٧ ـ أحكام الحج والعمرة .
٨ ـ الصوم المقبول .
٩ ـ الحكم الشرعى فى أحداث الخليج .
١٠ ـ كلمة عن تنظيم الأسرة .
١١ ـ السرايا الحربية فى العهد النبوى .
١٢ ـ فتاوى شرعية .
١٣ ـ المرأة فى الإسلام .
١٤ ـ عشرون سؤالا وجوابا .
١٥ ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة .
١٦ ـ الإشاعات الكاذبة وكيف حاربها الإسلام .
١٧ ـ الفقه الميسر ـ ثلاثة أجزاء .



رقم الايداع ٢٤٨٨ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0692 - 1

مطابع الشروق
ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
ص.ب ١٠٦٤ هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)





الإشاعات الكاذبة
وكيف حاربها الإسلام

عندما تقرأ سيرة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ترى أعداءهم قد أشاعوا عنهم الأراجيف الباطلة، والقبائح المنكرة. ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، ولعمها الخراب.

وإذا كان تصديق الإشاعات الكاذبة فى كل زمان ومكان، يؤدى إلى النكبات التى تلحق بالأفراد والجماعات. فإن تصديقها فى زماننا هذا الذى تعددت فيه وسائل الاتصالات يكون أشد شراً، وأقبح مصيراً، وأسوأ عاقبةً ولا سيما فى أيام الحروب والأزمات.

ولذلك أمر الله - تعالى - الأخيار فى كل زمان ومكان، أن يقفوا فى وجوه الأشرار، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد والطغيان.

هذا، وقد بينا فى هذا الكتاب أنجح الوسائل للقضاء على مثل هذه الإشاعات من التثبت من صحة ما يقال وما يُسمع، ورد الأمور إلى مصادرها الصحيحة، وسؤال أهل العلم عما خفى من أحكام، إلى غير ذلك من الوسائل التى اتخذت من المنطق الحق والقول الصدق والحجة الساطعة أداة لها فى هدم تلك الإشاعات وإبطالها.

د. محمد سيد طنطاوى

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر